أصداء التخطيط السياسي والعسكري لدى صلاح الدين
في رسائل القاضي الفاضل وديوانه

حجازي عبد المنعم سليمان
كلية الآداب – جامعة المنوفية

تُعالج هذه الدراسة أصداء التخطيط السياسي والعسكري لدى صلاح الدين في رسائل القاضي الفاضل وديوانه وذلك من خلال بعض المحاور يتصدرها التعريف بالموضوع وأهميته وجدوى دراسته والدراسات السابقة، وتعريف بالفاضل وتدرجه الوظيفي وعلاقته بصلاح الدين، وإنتاج الفاضل النثري والشعري وقيمته التاريخية، علاوة على مكانة الفاضل لدى صلاح الدين وعدم إساءته استخدام الصلاحيات التي فُوِضها، ناهيك عن رؤيته الاستراتيجية لبعض القضايا الداخلية - الخاصة بالطرف الإسلامي - التي أشار بها على صلاح الدين على ما ظهر في جهود صلاح الدين لتوحيد الجبهة الإسلامية في مصر وبلاد الشام والعراق عقب وفاة نورالدين محمود بن زنكي عام 569هـ/1174م.

كما عمل الفاضل على تهيئة الظروف الداخلية والخارجية بحيث باتت أرض المعركة ممهدة أمام صلاح الدين بذهن صاف، وقد ضمن رضاء الخلافة العباسية التي أضفت على تحركاته غطاء من الشرعية بدت في ولاء جيشه ورعاياه له، علاوة على دعم الفاضل النفسي والمعنوي لصلاح الدين وجيشه، وحشده للرأي العام المصري خلف صلاح الدين من خلال عدد من الإجراءات كاستخدامه للشعراء والمؤرخين للترويج لسياسته، ومسامحة رجال الأسطول وإكرامهم، وإسقاط بعض المكوس والرسوم عن رعيته، والدفاع عن مصر ومكانتها في محاولة لكسب قلوب المصريين وتأييدهم، الأمر الذي نتج عنه مع عوامل أخرى تعميق مفهوم الولاء لدى الرعية تجاه سلطانهم.

ووقف الفاضل على الصورة العامة للموقف السياسي والعسكري الخارجي المتعلق بالصليبيين، بحيث ربط بين الكيانات الصليبية في بلاد الشام وأوربا، وفلسف موقفه من القضية الصليبية بوصف حسمها الهدف الأسمى الذي ينبغي تحقيقه، وألمح إلى خطر الطوائف الدينية العسكرية وإلى عقيدة القتال لدى الصليبيين ومراكز قواهم، وأسلحة الصليبيين ودفاعاتهم وما إلى ذلك من قضايا مماثلة أوقفت صلاح الدين على

الكثير من الأوضاع الاستراتيجية لدى الصليبيين ومكنته من التصدي لهم، وأخيراً أهم نتائج البحث.

وقد نبعت فكرة الدراسة من مقولة صلاح الدين في حق الفاضل *"لا تظنوا أني فتحت البلاد بالسيوف، إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل*[1]"، ثم ما صاغه الأصفهاني بأسلوب آخر قائلاً: "....وفتح الأقاليم بمفاتح أقلامه، وأحكم المملكة بثبوت أحكامه..."[2]، ولا ريب في أن هذا الحكم لم يأت من فراغ، وبخاصة حينما يصدر عن الرأس المدبر للدولة الأيوبية ومؤسسها الذي أشار إلى إدراكه أن عوامل انتصاراته وأسبابها لم ترتبط بشخصه وإنما بفريق متكامل يمتلك رؤية لتحقيق النصر[3].

ومن الدراسات السابقة التي عالجت هذا الموضوع دراسة هادية الدجاني التي حملت عنوان "القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين"، وهو كتاب قيم عالج الكثير من القضايا التي ربطت بين صلاح الدين والفاضل في الفترة السابقة على التحاقه بخدمة الأيوبيين، والفترة التالية لالتحاقه بخدمة صلاح الدين، بيد أن الخط العام لدور الفاضل لا يبدو واضحاً على مدار دراستها التي وقفت كثيراً مع عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، والعماد الأصفهاني ووزراء الدولة الفاطمية وكتابها ورؤساء دواوينها وغيرهم مثلما وقفت مع الفاضل، وعليه فإنه يصعب الوقوف المباشر على انعكاس سياسة صلاح الدين في رسائل الفاضل وديوانه وتقييمها من خلال المصادر المعاصرة بالصورة التي يهدف إليها الباحث[4].

أما دراسة سوسن محمد التي حملت عنوان "صلاح الدين الأيوبي والقاضي الفاضل عمادا الوحدة الوطنية بين مصر والشام[5]" فتختلف بدورها عن الاتجاه الذي أشرنا إليه منذ قليل لاتخاذها خط الربط بين مصر والشام ودورهما في دعم الجبهة الإسلامية في مواجهة الجبهة الصليبية. ويختلف دور الباحث هنا في تقديم الرؤية – أو الرؤى - الاستراتيجية التي قدمها الفاضل وانعكاسها على التخطيط السياسي والعسكري لدى صلاح الدين في ضوء الإنتاج الأدبي للقاضي الفاضل وبخاصة رسائله النثرية وديوان شعره.

نشأ القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني[6] في مصر وتعلم بها، واشتغل بالدرس والأدب والرسائل، وصار تلميذاً لأستاذه ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء في

مصر في ظل الفاطميين ، ثم تخرج من ديوان الإنشاء وصار بارعاً في الإنشاء فتولى بعض المناصب المهمة في الدواوين الفاطمية[7]؛ فتولى الكتابة في الإسكندرية حينما اتصل بالكامل بن شاور الذي استكتبه، وظل في الإسكندرية حتى استدعاه الوزير الفاطمي العادل بن الصالح بن رزيك إلى القاهرة وأسند إليه ديوان الجيش سنة 558هـ/1163م[8]، ثم شارك في الصراع الدائر بين شاور وضرغام وما ترتب عليه من قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر وولايته للوزارة خلفاً لشاور، وحينها طلب شيركوه من كتاب القصر كاتب إنشاء فإنهم أرسلوا إليه الفاضل ظناً منهم أنهم تخلصوا منه لمزاحمته لهم نتيجة لبراعته[9]، ولكنه على العكس من ذلك تمكن لدى شيركوه ثم في دولة صلاح الدين الذي أُعجب بمؤهلاته وخبراته سواء الإدارية أو الميدانية[10] ودرايته بتسلسل القيادات العسكرية[11].

وقد أثار انتقال الفاضل من خدمة الدولة الفاطمية إلى خدمة الدولة الأيوبية عدداً من الاتهامات التي وصمته هو ومن على شاكلته من أهل عصره - مثل ابن مماتي وابن بيان وأبي الحسن المخزومي وغيرهم من العاملين في ديوان الإنشاء – بأنهم يأكلون على كل الموائد ولا يخدمون سوى مصالحهم[12]، بينما تساءل آخرون عن ما إذا كان يمكن التغاضي عن الاتهام السابق باعتبار الفاضل وأقرانه يخدمون مصر ولا يرون سوى مصلحتها سواء أكان الفاطميون هم الذين يحكمونها أم صلاح الدين.

وطرحت هادية الدجاني تصوراً عاماً وحاولت الدفاع عنه، ذلك أنها حاولت تقييم دور الفاضل في القضاء على الخلافة الفاطمية، وفي خضم ذلك افترضت أن بعض الباحثين قد يرى في موقفه نوعاً من الوصولية، ذلك أنه لم يصل إلى صلاح الدين سوى بعد مروره على أكتاف الفاطميين، ولذا فكيف به يجحد بأنعم هؤلاء ويتحول بولائه إلى الأيوبيين؟ حقاً لم تؤكد هادية الدجاني وصولية صلاح الدين بيد أنها لم تنفها عنه صراحة، ولكنها - من جهة أخرى - سعت إلى تبرير قيام الفاضل بهذا الدور مردفة أنه وصلاح الدين كانا يبحثان عن بعضهما لحاجتيهما إلى بعضهما، فأحدهما يسعى إلى امتلاك مصر ويحاول القضاء على الفاطميين لضم مصر إلى الجبهة الشامية السنية، والثاني لديه معرفة لا بأس بها بأحوال مصر وأوضاعها، وهنا تلاقت آمالهما وسعيا إلى تحقيق ذلك الهدف بالتعاون فيما بينهما[13].

ويرجح الرأي الأخير - القائل بأنه لم يكن يخدم شخصاً وإنما يخدم مصر – بعض الإشارات يتضمنها إشارة الفاضل في ديوانه إلى عدم رضاه عن وضع مصر في فترة

خدمته للفاطميين في ظل خلافة العاضد الفاطمي، ولمسه للعجز الذي باتت فيه مصر وبخاصة حينما صارت مرتعاً للصليبيين في أيام شاور الأخيرة على عهد الملك عموري الأول[14]، وأقر أن أموالهم كثيرة ولكنها تُنفق على الصليبيين "...وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء التدبير، ومما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير، وأن النظام قد فسد...والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة..."[15]، ولهذا الرأي وجاهته بحيث ردد الفاضل ما يماثل ذلك من خلال شعره، ففي قصيدة بعث بها إلى نورالدين محمود أشار إلى أن أموال مصر كثيرة، ولكن خلفاء الدولة الفاطمية ينفقونها على الأغاني والطرب، يقول:

وما بعد مصـ ـ ـر للغنى متطلب وما بعد هذا المال مال فيكتسب
ولو أنه في البأس يمضي أو الندى لهان، ولكن في المغاني وفي الطرب[16]

ومن جهة أخرى فقد تأثر الفاضل بماضي أسرته التي عانت كثيراً من الظلم الذي تعرضت له من قبل الفاطميين[17]، ومات والده متأثراً بمحنته، فبات على يقـين أن الفاطميين لن ينجحوا في إصلاح ما أفسدته أيديهم، ولأجل ذلك فإنه وقـف إلـى جانب صلاح الدين منذ البداية وشجعه على إنجاح مشاريعه التي ستقوم على حـساب الفاطميين في مصر[18].

ويدعم هذا الرأي أن الفاضل لم يختر الذهاب إلى معسكر شيركوه حينما قُتل شاور وعين الأول وزيراً، وإنما بعث به أرباب الأقلام لدى الفاطميين لظنهم أن الأمر لن يدوم لشيركوه وأنه سرعان ما سوف يسقط ومن ثم فإنهم حينما بعثوا بالفاضل إلى شيركوه فللتخلص منه، ولم ينقذه من قتل شيركوه له سوى حنكته ودبلوماسية ردوده، ناهيك عن إثباته سرعة بديهته في الكتابة بحيث قال عنه شيركوه بعد اختباره له قولته المشهورة "...عندنا كتبةٌ بالشام نأمرهم بالشيء فيمضون ويقيمون اليوم واليومين، ولا يأتون به على الغرض، وهذا قلنا له كلمتين، كتب هذه الكتب التي لا نظيـر لهـا..." ومن وقتها صار الفاضل ملازماً لشيركوه ثم لصلاح الدين من بعده[19].

وعلى الرغم من أن الفاضل لم يصحب صلاح الدين فـي أغلـب عملياتـه الحربية وبخاصة حملاته على الكرك[20] ومعركة تل الصافية[21] ومعركـة حطـين واسترداد المدن الساحلية وبيت المقدس، وأغلب فترات حصار الحملة الصليبية الثالثة لمدينة عكا، ثم العمليات الحربية التي تلت رحيل فليب الثاني - ملك فرنسا - وبقـاء ريتشارد قلب الأسد - ملك انجلترا - مواجهاً لصلاح الـدين حتـى صـلح الرملـة

589هـ/1193م[22] فإن الفاضل لم يكن بمعزل عن الأحداث الجارية[23]، حقاً لم يكن في بؤرة الأحداث ربما بسبب الأمراض الكثيرة التي عانى منها[24]، بيد أنه من جهة أخرى كان رئيساً لديوان الإنشاء؛ فإليه ترد الأنباء الموثقة[25]، وعنه تصدر المراسلات الرسمية المبشرة بالنصر - أو الحاملة للأخبار أياً كانت - إلى دار الخلافة وسائر البلدان، ناهيك عن أنه حتى في مرضه لم يعجز[26].

وتنقسم رسائل الفاضل إلى نوعين: رسائل ديوانية صادرة عن ديوان الإنشاء وهي بمثابة سجل دقيق لمراسلات صلاح الدين، ورسائل إخوانية بعثها إلى أصحابه ورفاقه في الشوق والعتاب وما إلى ذلك من الأغراض النثرية، وقد برع الفاضل في تلك الرسائل براعة جعلته صاحب طريقة نثرية في كتابة الرسائل عرفت بالطريقة الفاضلية[27]؛ وقد أوضحت رسائله مدى فهمه للقوى السياسية والعسكرية المحيطة والمعاصرة.

وتكمن أهمية الرسائل التي خطها الفاضل ليس في مضمونها فحسب وإنما في نظرة مؤرخي تلك الحقبة لقيمتها والقدرة الكبيرة لدى صاحبها على صياغتها[28]، علاوة على الدور الدعائي الكبير الذي لعبته في الترويج لسياسة صلاح الدين وأعماله بين رعاياه، فأوضح الأصفهاني أن للرسائل ذات الرصانة اللغوية والبلاغية - التي تحمل أخبار الانتصارات والحروب والمرسلة للبشارة بالانتصارات - وقع قوي في نفوس الرعايا وبخاصة حينما تُقرأ على منابر المساجد[29]، وأكد الفاضل في إحدى رسائله مدى أهمية الرسائل التي خطها هو وغيره بوصفها واحدة من أهم وسائل الدعاية التي نشرت أعمال صلاح الدين بين رعاياه[30] "...وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص، فلذلك نفذنا لساناً شارحاً ومبشراً صادحاً ينشر الخبر على سياقته ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته[31]"، وفي ذلك ذكاء من الفاضل بحيث استغل بشارة النصر للدعاية لصلاح الدين بالطريقة التي تروق له بعد وقوع سامع الرسالة وبشارتها في أسر أسلوبه، وهذا يعني من جهة أخرى أن رسائل الفاضل كانت بمثابة وسيلة إعلامية سبقت عصر صناعة الإعلام المحترف بقرون طويلة، ولأجل ذلك حرص صلاح الدين على الإكثار من ذلك النوع من الرسائل وإيفادها إلى المدن التابعة له للإعلان عن انتصاراته وأعماله[32]، ونتيجة لذلك حملت رسائله معين لا ينضب من المعلومات التي لم يقف غير الفاضل عليها[33].

أما ديوان الفاضل فيصعب الإفادة منه بشكل مباشر – على غرار الرسائل- نظراً لوضع الفاضل أغلب أشعاره المتعلقة بالمديح والفخر في الفترة السابقة على عصر صلاح الدين، فمدح الخلفاء والوزراء الفاطميين وأولادهم ورجال دولتهم مثل أشعاره في بني رزيك وفي أسرة شاور، وبالنسبة للأخير فقد تضمنت بعض أشعار الفاضل تحريضاً منه لشاور وابنه على التمسك بمصر ومحاربة نورالدين وغيره في دمشق وحلب وعدم التفريط فيها:

وأنقذت من مصر عدواً بمثله فلله من ظفر فلات وناب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة أقمت بها للقوم سوق ضراب[34]

وربما لأجل ذلك لن ينسلخ الفاضل عن ذلك الجلد فيبدو بوجهين أمام سيده الجديد، فمدح صلاح الدين وافتخر به ولكن على المستوى الشخصي، وحرص على تأكيد الترابط بين صلاح الدين ومحاربة الصليبيين، ولكن برزت هذه الناحية أكثر في رسائله وقل أثرها في ديوانه. ويعلل أحمد بدوي اختفاء روح عصر الحروب الصليبية في ديوان الفاضل - إلا قليلاً - نتيجة لأنه خدم ذلك الغرض في رسائله واكتفى بما نظمه في الفترة السابقة على خدمته لصلاح الدين، وأنه ربما انشغل بوظيفة رئيس ديوان الإنشاء التي شغلها عقب التحاقه بخدمة صلاح الدين[35].

وبالرغم من المكانة التي حققها الفاضل لدى صلاح الدين فإنه لم يكن مستشاره الوحيد مثلما لم يسع إلى إساءة السلطات الكثيرة التي منحها له، وإنما كان لدى صلاح الدين بعض المستشارين ممن حرص الفاضل على تقديم بعضهم إليه من "...الأمراء الأكارم، ورجال الحقائق الضراغم الذين هم له أعوان صدق...[36]"، وليس في هذا تقليل من قدر الفاضل؛ لأن صلاح الدين يعلن بذلك عن الفريق الذي سانده في حروبه وانتصاراته.

ولكن كان للفاضل بعد نظر وتجربة بالسياسة ميزته عن أقرانه من مستشاري صلاح الدين وقربته منه بصورة جعلت بعض المؤرخين يصورونه بأن السلطان كان يعتمد عليه ويثق في رأيه "...وكان هذا القاضي الفاضل صاحب دولة صلاح الدين وأكبر من بها...[37]"، وصور الأصفهاني قدوم الفاضل على معسكر الجند بأنه أحيا السلطان ذاته، وذلك لأنه كان ينجح في رفع معنويات الجيش[38]، علاوة على دوره في مرافقة الجند سواء إلى دمشق أم مصر في أثناء انشغال صلاح الدين، وتقديمه الدعم بالرأي والمشورة في أكثر من موضع "...كل ذلك بمشورة الأجل الفاضل

وعنايته بالساير والواصل، فإن السلطان لم يزل يأخذ بإشـارته ويعطـي ويـصيب ببركات آرائه ولا يخطئ...[39]"، وقال في موضع آخر عقب صلح السلطان مع أمير الموصل وعودته إلى دمشق عام 580هـ "...واجتمع السلطان به فبثه أسراره وزاره مرة واستزاره...وراجعه في مصالح دولته واستشاره وعمل بما أشار به...[40]"، فهذا وغيره يعكس مقدار الثقة التي تمتع بها الفاضل لدى صلاح الدين والدور الذي قام به في خدمته، ولكن لم يمنع ذلك من وجود نخبة أخرى من مستشاري صـلاح الـدين حرص الفاضل ذاته على تقديم بعضهم إلى السلطان الذي كـان يـشاورهم فـي أدق أموره[41]، وربما كان ذلك أحد أسباب حرص الفاضل على التدقيق في اختيارهم.

وأورد ابن خلكان رسالة بعث بها الفاضل إلى صـلاح الـدين تعـزز مـن افتراض حرص الأول على اختيار نخبة من رجال العلم والأدباء لشغل مراكز مهمة وحساسة تحيط بصلاح الدين[42]، ونوه بعض كبار رجال دولة صـلاح الـدين إلـى الأيادي البيضاء للفاضل عليهم، ويتصدرهم الأصفهاني بقوله: "...ونوه بذكري وسعى في رفع رتبتي وزيادة راتبي...وأقرني وقربني...[43]"، ولم ينس العماد التنويه إلـى أيادي الفاضل على حاشية السلطان، وأنه كان له دور في رفع أقدار بعـضهم لديـه، ونتيجة لذلك فإنه تعرض للمهاجمة أحياناً على غرار ما فعله الوهراني الـذي اتهـم الفاضل بالتدخل في كل صغيرة وكبيرة، ومحاباته لمن يرق له من أهل العلم والكتابة، وفي الوقت ذاته أبعد من لم يجذب انتباهه[44]، وربما لأجل ذلك انتُقد الفاضـل مـن بعض شعراء عصره واتخذ بعضهم منه مواقف عدائية اتخذت شكل الهجاء الـلاذع الذي قللوا فيه من شأنه.

غير أن تفكير الفاضل على تلك الشاكلة وفر لصلاح الدين حاشـية روعـي اختيارها بعناية من قبل رجل له ذلك الثقل السياسي والإداري وخبرة كبيـرة بخفايـا السياسة المعاصرة، وسوف يعمل هؤلاء الذين اختارهم على تنفيذ اسـتراتيجيته فـي رسم سياسة صلاح الدين[45]، على غرار ابن مماتي أحد كتاب ديوان الفاضل الـذي وضع عدداً من المؤلفات عـن عـصر صـلاح الـدين وبخاصـة فـي النـواحي الاقتصادية[46]، ناهيك عن أشعاره في صلاح الدين، فضلاً عن العمـاد الأصـفهاني وابن شداد وابن سناء الملك[47] وغيرهم ممن عملوا على نشر سياسة صلاح الـدين وتنفيذها بين رعاياه سواء بالشعر أم بغيره، وقد أكد الفاضل في أحد رسائله ما للشعر من دور مهم في الترويج لسياسة السلطان بين رعاياه "...وأما القصيدة فقـد كانـت

مسرتي بدلالتها على راحة سره، وانشراح صدره وفيض بحره، أكثر من مسرتي بما خلدت من ذكره وقلدت من فخره...[48]". وقد اعتاد الفاضل الإشارة على الأصفهاني بإيراد بعض مختارات القصائد التي صنفت في مدح صلاح الدين ليضعها في كتابه "خريدة القصر وجريدة العصر" على غرار بعض أشعار أسامة بن منقذ وغيره التي أشار الفاضل على الأصفهاني بإيرادها في الديوان[49].

وحرص الفاضل على حشد المؤرخين حول صلاح الدين وتشجيعهم على الكتابة في مجال التاريخ، حيث أكد الأصفهاني أن الفاضل قد تفضل عليه بتسمية كتابه الفتح القسي "...فقال لي: سمه الفتح القسي في الفتح القدسي، فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته...[50]"، بل وحثه الفاضل على سرعة الانتهاء من كتاب آخر يسمى التاريخ الناصري كي يضمنه بعض ما كتبه الفاضل، وهذا يعني ضمناً أن العماد كان يستعين بما تحت يدي الفاضل من وثائق ورسائل[51]، ولا يخفى أن مؤلفات الأصفهاني تحديداً وبخاصة التاريخية كانت عن صلاح الدين وأعماله، وكتاب "فصوص الفصول وعقود العقول" لابن سناء الملك فأكثره من إنشاء القاضي الفاضل[52]، وكتاب "قوانين الدواوين" لابن مماتي عن أحوال مصر الاقتصادية آنذاك[53]، وكتاب "المنهج المسلوك في سياسة الملوك" للشيزري[54] عن سياسة صلاح الدين وما إلى ذلك.

وبالرغم من التفويض شبه المطلق الذي فوضه صلاح الدين للفاضل فإن الأخير أحسن استغلال صلاحياته للعمل على تماسك البيت الأيوبي، وأوضح حرصه على خدمة ذلك البيت بكل جوارحه "...والبيت الكريم أنا في ولائه وخدمته...وقلبي لغيركم كالقلوب يسرني أن يمد الله ظلهم وأن يجمع الله شملهم، كما يسوءني أن تختلف آرائهم ولا تنتظم أهواؤهم..."، وبرغم انفراده بأمور مصر وقت انشغال صلاح الدين في الشام وبخاصة خلال الأحداث التي تلت استرداد بيت المقدس عام 583هـ/1187م وصولاً إلى صلح الرملة عام 589هـ/1192م، وبصفته مشرفاً على أحد أبناء صلاح الدين في مصر فلم يعمد الفاضل إلى إساءة السلطات التي خُول إياها "... والأحوال هاهنا بمصر مع بعد سلطانها وتمادي غيبته عن مباشرة شأنها، على ما لم يشهد مثله في أوقات السكون فكيف في أوقات القلق...والأمير الولد صحيح

في جسمه وعزمه، متصرفٌ في مصالحه على عادته ورسمه...[55]"، وهكذا فإنه كان يراسل صلاح الدين بكل كبيرة وصغيرة، بحيث لا يبد منفرداً باتخاذ القرار وبالتـالي اتهامه بإساءة استخدام ما خول من نفوذ.

وقد عالج الفاضل فلسفته للتخطيط السياسي والعسكري لدى صلاح الدين في صورتين، فجاءت الصورة الأولى مباشرة وأكثر صراحة وإن كرر بعض تفاصـيلها في أكثر من رسالة، وأكمل بعضها بعضاً بحيث رسمت صورة شبه متكاملـة عـن أخبار صلاح الدين عموماً وحروبه وسياسته خصوصاً[56]، بينما جـاءت الـصورة الثانية مبعثرة وغير مباشرة لأنه ضمنها في رسائله التي ظل يسطرها طوال خدمتـه لصلاح الدين وبعد وفاته، ويمكن الوقوف من خلالها على أن ما حققه صلاح الدين لم يكن وليد المصادفة التاريخية، لأن رسائل الفاضل وشعره يعكـسان وجـود دراسـة مسبقة لأغلب تحركات صلاح الدين السياسية والعسكرية على المـستويين الـداخلي والخارجي.

وفيما يخص المستوى الداخلي المرتبط بصلاح الـدين وأمرائـه والأمـراء المسلمين والقادة الآخرين المخالفين له فإن الفاضل كان أشد حرصاً على ثلم أي ثغرة تنشأ عن الضغط العسكري الذي يهدف إلى إجبار الأمراء المسلمين على الانـضمام للوحدة التي دعا لها صلاح الدين وسعى إلى تحقيقها، وقد عكست رسائل الفاضـل - خلال الأزمة التي أعقبت وفاة نورالدين عام 569هـ/1174م- خطـورة محـاولات قادة نورالدين الاستئثار كل بما في يده بحجة حماية مصالح ولده الصالح إسـماعيل، وتأكيداً لرؤية الفاضل فقد استعان بعض هؤلاء الأمراء بالصليبيين ضد صلاح الدين بهدف ردعه عن التقدم من مصر إلى الشام[57]، وهنا هدفت رسائل الفاضل إلى حث هؤلاء القادة على عدم الاتصال بالصليبيين وانتظار قدوم صلاح الدين، ونجـح فـي القيام بدور الوسيط في تسليم دمشق إلى صلاح الدين على ما أشار ابن الأثير[58].

وعالجت رسائل الفاضل فيما بعد أحداث حصار صلاح الدين لمدينة حلب - مقر حكم الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود - ولكنه اضـطر إلـى الانـسحاب جنوباً، ليس خوفاً من إثارة الصالح إسماعيل لأهالي حلب بإيعاز من حاجبه المتـسلط كمشتكين ولا من محاولة الباطنية اغتياله وإنما للحيلولة دون استيلاء ريموند الثالث - أمير طرابلس - على حمص بموافقة الحلبيين.

وتكاد رسائل الفاضل تنفرد بتفاصيل الهجوم الصليبي الحلبي على حمـص، حينما أقرت أنه لم يجر قتال بين الطرفين وإنما بمجرد علم قوات الصالح إسـماعيل وريموند الثالث باقتراب صلاح الدين من حماة فإنهم انسحبوا إلى حصن الأكراد عام 570هـ/1175م فتفاوض صلاح الدين مع الطرف الصليبي[59]، وكان ذلك في جانبه لأنه أعطاه فرصة لمعالجة مشاكله مع الطرف الإسلامي في حلب والموصل، ومـن جهة أخرى كان جنوده في حاجة إلى الراحة والتزود بالأقوات، ولكن اضطر صلاح الدين إلى استدعاء الفاضل في العام التالي من مصر على رأس الجيش بسبب استعداد الحلبيين والمواصلة لمحاربته مستغلين بعد عساكره عنـه واسـتنجدوا مـرة ثانيـة بالصليبيين ووعدوهم بإطلاق سراح بعض كبار أسراهم من سـجون حلـب وعلـى رأسهم رينو دو شتيون – أمير أنطاكية سابقاً وأميـر الكـرك والـشوبك لاحقـاً - وجوسلين الثاني - أمير تل باشر والرها سابقاً، ولكن صلاح الدين انتصر عليهم.

وعلى ما يبدو وكما يفهم من مضمون شعر الفاضـل ورسـائله فـإن تلـك الأحداث أقنعت صلاح الدين بضرورة ضم حلب إلى مصر ودمشق والقضاء علـى معارضة الصالح إسماعيل في حلب، فها هو الفاضل يشير إلى أن تلـك المعركـة – المسماة بقرون حماة - قد مهدت السبيل لفتح حلب:

هذي قرون حماة جئت تأخذها وإن إمساكها يفضي إلى حلب

ثم علل الفاضل هذا الاتجاه بسبب قيمة حلب بالنسبة للبلاد الشامية الـشمالية قائلاً: "...وحلب بلد إذا ضبط ضبط ما وراءها من البلاد، وإذا وقع فيهـا تـشويش سرى منها إلى غيرها الفساد[60]"، وربما لأجل ذلك أصر صلاح الدين على بذل كافة المحاولات العسكرية والدبلوماسية حتى تملك حلب عام 578هـ/1183م[61]، وحينما فتحها قال الفاضل معللاً: "...وأنه لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هي العليا لا غيـر، وثغور المسلمين لها الرعاية لا ضير، ولا نختـار إلا أن تغـدو جيـوش المـسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعتوها، ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لمـا عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنمـا أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة...".

وأكد الفاضل ذلك المعنى مرة أخرى معلناً أن الهدف من ضمها هي وغيرها "...من البلاد رجالها لا أموالها وشوكتها لا زهرتها ومناظرتها للعدو لا نضرتها، وأن يعظم في العدو...نكايتها...فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها ولغيرنا مغرمها، وفي خدمتنا مـا لا نسمح به وهو عسكرنا، وفي يده ما لا تضن به وهو درهمنا...فلم يخرج منا بلد إلا إلينا عاد عسكره، وإنما استنبنا فيه من يحمل عنا مئونته ويدبره، وتكون عساكره إلى عساكرنا مضافة..."[62].

ولابن الأثير قول مهم يشير إلى حض الفاضل لصلاح الدين على ضـرورة امتلاك حلب بوصفها ستثبت ملكه غير المستقر "...واستقر ملك صلاح الدين بملكها، وكان مزلزلاً فثبت قدمه بتسلمها..."، ولعله يقصد بالجزء الأخير مـن تعليقـه كـم الصعوبات الكثيرة التي واجهت صلاح الدين منذ خرج من مصر عقب وفاة نورالدين سنة 569هـ/1174م حتى اللحظة التي امتلك فيهـا صـلاح الـدين حلـب سـنة 579هـ/1183م، خصوصاً الصعوبات التي نشأت عن حروبه في الموصل وحران وخلاط وآمد ونصيبين وجزيرة ابن عمر وغيرها[63]، ولأجل ذلك فقد جاء امتلاكـه لحلب تتويجاً لجهوده في تلك الجبهة ومصداقاً لما أقره الفاضل في شـعره[64]، ولـم يقف الأمر عند ذلك وإنما أورد ابن الأثير بيتاً لمحي الدين بن الزكي قاضي دمـشق ربط فيه بين امتلاك صلاح الدين لحلب وبين دخوله بيت المقدس جاء فيه:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب[65]

وأكد ابن الأثير في المناسبة ذاتها فيما أورده من اقتباسـاته عـن الفاضـل حرص الأخير على أخذ حلب وتفهمه لما حدث من استبدال حلـب بـبعض القـرى والأماكن غير المحصنة التي يسهل استعادتها دون جهد في أي وقت، بل إننا نجد في كلام الفاضل فلسفة لها بعد أكبر على المستوى العام بقوله: "...ومما كتبـه القاضـي الفاضل في المعنى عن صلاح الدين، فأعطيناه عن حلب كذا وكذا، وهو صرف على الحقيقة أعطيناه الدراهم ونزلنا عن القرى، وأحرزنا العواصم، وكتب أيضاً: أعطيناه ما لم يخرج عن اليد، يعني أنه متى شاء أخذه لعدم حصانته..."[66].

وترى هادية الدجاني أن الفاضل رأى في أخذ حلب ذروة انتصارات صلاح الدين، بينما خالفه صلاح الدين وأصر على أخذ الموصل من الزنكيين كـي تكتمـل

انتصاراته، الأمر الذي أثار عليه أحقاد المواصلة بعد حملات استمرت ثلاث سنوات ولكنها لم تُكلل بالنجاح[67]، مما جعل الفاضل يتصل بالمواصلة لحسم الخلاف الأمـر الذي ضايق صلاح الدين[68]، فجاء في رسالة للفاضل تبرير تـصرفه علـى نحـو "...وأوحشني قوله أني بعثتُ الكتاب مرتاداً للمواصلة ومستأذناً، وكيف نرمي معشر الطلبة بالعقوق لأستاذنا، إنما الإذن منه لا له...[69]"، وبخاصة أن ابن الأثير أكد تقبيح الفاضل على صلاح الدين شدة حرصه على ضرورة ضم الموصل[70].

وبالرغم من المحاولات التي بذلت لأجل الصلح فإنه لم يتم إلا عقب مـرض صلاح الدين في حران عام 581هـ/1185م، وقد هنأه الفاضل بالـسلامة والـصلح معاً، ونصحه ألا يحارب مسلماً بعدما شفاه الله من مرضه، وأن يوجه جل اهتمامـه إلى الصليبيين[71]، وهذا على قول هادية الدجاني من أجل الأدوار التاريخية - علـى المستوى الإنساني - التي تُحسب للفاضل حينما نادى بضرورة حقن دماء المـسلمين وتحويل الطاقات العسكرية الإسلامية إلى مقاومة الصليبيين[72].

واللافت للنظر أن تلك الرؤية كانت قائمة علـى أسـاس التوجيـه الـسلمي للأحداث، بمعنى عدم الضغط على الأمراء المنشقين على صـفوف الوحـدة وإنمـا بالإقناع، على اعتبار أن ثمة مصلحة عليا للجميع لن تتحقق سوى بالوحـدة، وهـي تحرير البلدان الإسلامية من أيدي الصليبيين، ورأى الفاضل أن التوجيـه الإجبـاري للوحدة قد ينشأ عنه صراع داخل المعسكر الإسلامي سيفتح مجـالاً للثغـرات التـي سينجم عنها تحالف بين القوى الرافضة للوحدة وبين الصليبيين طمعاً في استبقاء ملك أو سلطة[73].

وقد نبه الفاضل إلى كثرة أعداء الوحدة قائلاً "...وإذا ولاه أميـر المـؤمنين ثغراً لم يبت في وسطه وأصبح في طرفه، وإذا سوغه بلداً هجر في ظل خيمة ولم يقم في ظل غرفة، وإذا بات بات بسيف له ضجيعاً، وإذا أصبح أصبح ومعترك القتال له ربيعاً، لا كالذين يغبون أبواب الخلافة...وكأن الدنيا لهم إقطاع لا إيداع، وكأن الإمارة لهم تخليد لا تقليد، وكأن السلاح عندهم زينة لحامله ولابسه، وكأن مال الخلق عندهم وديعة، فلا عذر عندهم لمانعه ولا لحاسبه، وكأنهم في البيوت دمى مصورة في لزوم جدرها، لا في مستحسنات صورها...[74]".

ويلمس في إشارة الفاضل على صلاح الدين بعدم الاستماع إلى مـن يـشير عليه من قادته بهدم مدينة عكا، واتساق ذلك مع حرص صلاح الدين على عدم هـدم

المدن العامرة اتحاد في الرؤية بين الفاضل وصلاح الدين. وحينما قدمت الحملة الصليبية الثالثة بقوة كبيرة[75] وصار موقف صلاح الدين حرجاً فقد علل الفاضل ذلك بأن المسلمين لا يملكون القوة البحرية التي تمكنهم من مجاراة أساطيل الحملة الصليبية الثالثة[76].

وتعكس رسائل الفاضل مواصلته الدعاية لصلاح الدين في الخارج من خلال محاولاته الاتصال بخليفة الموحدين المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن سنة 585ه/1189م[77]، ولعله أدرك أن حاجة المسلمين إلى الدراية بفنون القتال في البحر شديدة الأهمية، وأنه رأى أيضاً أن محاولة المنصور من جهته شغل الفرنج في بلادهم عن مهاجمة المسلمين في الشرق أو على أقل تقدير إبعادهم عن مساعدة أقرانهم في الشرق لأبلغ دليل على ما تمتع به من رؤية عسكرية شاملة للموقف السياسي والعسكري المعقد في تلك الفترة. "...ولو أن دربة عساكرنا في البحر كدربتها في البر لجعل الله منهم الانتصاف، واستقل واحدنا بالعشرة ومائتنا بالألف...فلا يؤمن على ثغور المسلمين أن يتطرق العدو إليهم وإليها ويفرغ لها ويتسلط عليها، وإذا قسمت القوة على تلقي القادم وتوقي المقيم فربما أضر الإسلام انقسامها..."، وقد طلب الفاضل مساعدة محددة ممثلة في إمداد المنصور للمسلمين في الشام بالمراكب التي يملك منها الكثير، وأن تأتي تلك المراكب برجالها إلى الخدمة عليها بدليل قوله: "...ويعهد إلى واليه أن يقيم إلى أن يرتبع ويصيف، ويمكنه أن يكف شطراً لأسطول طاغية صقلية...[78]"، حقاً لم تُقدم مثل تلك المساعدة لعدد من العوامل ولكنها على أقل تقدير أزاحت جانباً من الجمود الذي سيطر على العلاقات بين المسلمين في الشرق وفي الأندلس.

ويرى الفاضل أن محاربة الصليبيين ليست مسئولية المسلمين في الشرق فحسب وإنما هي مسؤولية جماعية تضم المسلمين شرقاً وغرباً، لاتفاق المسيحيين الغربيين في أوربا على أساس الدين، حقاً لم تكن الأديان سبباً للحروب وإنما استغلها الراغبون في الحرب لتحقيق أغراضهم، وهنا استخدم الفاضل العاطفة الدينية لحشد الدعم لصلاح الدين[79].

وأيده الأصفهاني في أن الصليبيين يلتفون حول الدين ومن أجله تأتيهم المؤن والإمدادات وأن الغرب الأوربي وقف مع الشرق الصليبي في مواجهة صلاح الدين، وهي الفكرة ذاتها التي نادى الفاضل على أثرها بضرورة اجتماع المسلمين بهذه

الصورة كي يتصدوا لهم"...فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة...إلا جهـزت مراكبها، وأنهضت كتائبها وتحرك ساكنها...وخرج بصلبانها أساقفتها وبطاركهـا، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها...ونادوا في نواديهم بأن البلاء دهم بلادهـم، وإن إخوانهم بالقدس أيارهم الإسلام وأبادهم، وأنه من خرج من بيته مهـاجراً وبحـرب الإسلام مجاهراً ولمتعبده مسترداً ولجده في النخوة لدينه مستجداً فقد وهبت له ذنوبـه وذهبت عنه عيوبه...[80]"، مشيراً بذلك إلى منح الغفران للمشاركين من الأوربيين في الحملات الصليبية.

وقد نوه الفاضل إلى القضية الصليبية بوصفها الأكبر بالنسبة للمسلمين فـي عصره، وعد حسمها الهدف الأسمى الذي سوف يتحقـق ببـذل الجهـد والتـضحية "...يتوقع إن هان العدو في العيون وظهر منه غير ما كان في الظنون أن يكـسر الله بكم مصافه ويفتح عليكم بلاده، ويطهر بسيوفكم الـشام ويـسر بنـصركم الإسـلام، ويشرف بيوم نصركم الأيام..."، وفي الرسالة يتضح بعده الخطط لموقف الصليبيين بأنه إذا اتضح ضعفهم وبدا للمسلمين ما يخالف توقعهم فسوف تقوى عزيمتهم وتخور همم الصليبيين[81] والعكس صحيح لأن ذلك كان سبباً في نجـاح الحملـة الـصليبية الأولى ليس عن ضعف في الجبهة الإسلامية أو قوة لدى الصليبيين بقدر مـا عكـس الانقسام والفرقة بين المسلمين فهانوا في عيون الصليبيين.

كما نصح الفاضل صلاح الدين بملازمة أرض العدو للكيد له ودحره "...ولو جعل السلطان...غزو هذا الطاغية مغزاه وبلاده مستقر عسكره ومثـواه، لأخـذ الله الكافر بطغواه ولأبقى ذكراً وأجرى في الصحيفة أجراً...[82]"، ومن هنا تأتي مسئولية المسلمين في المغرب والأندلس التي تفرض عليهم أن يهبوا لمساعدة إخـوانهم فـي الشرق بغض النظر عن أي خلافات سابقة، وعليه جاءت رسالة الفاضل إلى يعقـوب بن يوسف بن عبد المؤمن[83]. وعلاوة على ذلك فقد حرص الفاضل على جمع كلمة إخوة صلاح الدين وأقاربه حوله بما كان يكتبه إليهم من رسائل بشكل مستمر، كانت تجمع بين صورتين كل منها يكمل الأخرى، منها إعلام المرسل إليه بما صار إليـه الوضع ومطالبته بتقديم المساعدة.

ويبدو هذا الجانب حينما أرسل باسم صلاح الدين إلى أخيه سـيف الإسـلام سلطان اليمن يستقدمه إليه معاوناً له على قتال الصليبيين عام 584هـ/1188م عقب استرداد صلاح الدين لبيت المقدس من الصليبيين قائلاً: "..إن الفرنج لا يسلون عمـا

فتحنا ولا يصبرون على ما جرحنا، فإنهم...أمم لا تُحصى وجيـوش لا تستقـصى، ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصباً، ويطمع في كل مدينة كسباً..."، وأيده الأصفهاني بأن صلاح الدين ندب الرسل "...إلى الأقطار والأمصار، للاستنفار والاستنصار، وبث الكتب وكتب بالبث، وحـث الرسـل وأرسـل بالحـث، وبعـث المسرعين لاستبطاء البعث، وأنهض للتبليغ كل بليغ...[84]".

وهنا يلحظ أن الفاضل يجهز مسبقاً للمعركة ويحدد خطواتها، فهو يشير إلى أن جيوش صلاح الدين سوف تتحرك إلى أنطاكية وطرابلس ولن ينسوا تأمين مصر والمدن الواقعة في أيدي المسلمين في الشام، لأنه يعلم أنها مطمعاً للعدو، وهنا يقـرر ضرورة المسارعة في تلبية النجدة "...فالبدار إلـى النجـدة البـدار...بإيقـاد نـار الحرب...والهمة الهمة فإن البحار لا تُلقى إلا بالبحار، والملوك الكبار لا يقـف فـي وجوهها إلا الملوك الكبار[85]".

وفي الإطار ذاته بعث بعدد كبير من الرسائل إلى الخلافة العباسية للإبقـاء على الصلات الطيبة بها[86]، وكان من الذكاء بحيث ربطت رسائله بـين فتوحـات صلاح الدين الجديدة وبين طلبه من الخلافة تقليده تلك البلدان وهو المسلك الذي أحاط صلاح الدين بجدار من الشرعية وأضعف من موقف خصومه، إضافة إلى طلب دعم الخلافة لصلاح الدين بالجند كي يعلم بذلك القاصي والداني، وأن يكون الخليفة قـدوة للأمراء في أرجاء العالم السني "...وإنما يريد أن يأتي بهم على أعين الناس، ويكفيهم مئونة أيدي البأس، ليعلم أنه بيد الخلافة يصل ويصول، وبلسانها يستقل ويقول...[87]".

على أن الفاضل لم يكن يدعو إلى الحرب بدافع الواجب أو ما تُمليـه عليـه وظيفته فحسب وإنما يلمس إلى جانب ذلك حب دفـين وسـعي حثيـث "...فانجـدوا المسلمين يا حملة سلاح الصلاح، وابعثوا سرايا دعواتكم فإنا ننتظـر غـب سـراها الصباح...[88]"، واستغل مذابح الصليبيين في أسرى المـسلمين فـي عكـا للتـشنيع بالصليبيين، فكتب على حد تصويره للموقف "...بجميع أعضائه ويملي على اثنين من كتابه..."[89] وذلك استنجاداً بالمسلمين للحفاظ على ما بقي مـن الـبلاد فـي أيـدي المسلمين.

وعكست رسائل الفاضل دعمه النفسي لصلاح الدين وجنده وبخاصة عقـب الهزائم، فتحمل مسئولية إعدادهم النفسي وقت الهزائم بالتقليل مـن شـأنها، والـدفع المعنوي لصلاح الدين وجيشه كي لا يقفا عند الهزيمة أو التأثر بها، وحرص وقـت الانتصار على إيضاح الرهبة والرعب لدى العدو كي يكون ذلك نافذة أو معبراً نفسياً للجنود كي يتغلبوا على مخاوفهم، وربما لأجل ذلك الغرض كان الأصفهاني حريصاً على تواجد الفاضل في عمليات الحصار التي دارت حول عكا بعد معركـة حطـين، لأنه يعي جيداً مكانته ودوره الذي لا يعوضه وجود غيره[90].

ومن محاولاته لرفع عزيمة السلطان وكان قد هم بالزهد والذهاب إلى الحـج في ذروة أحداث الحملة الصليبية الثالثة وخوفه من هدمها جميع الانجازات التي حققها "...وأما ما نواه السلطان من الزهد فمتى قيل إنه في الدنيا رغب، وإن كان من الزهد ما يكرهه الله فهو زهد الملك الشجاع العادل، وقفة قدام قلعة قد امتنعـت، بأمـة قـد اجتمعت، قبالة أعداء قد ارتفعت، واستنزالهم منها راغمين...خير من ألف سنة رباط في الكعبة...وما يتسلم هذا السيف من يده إن شاء الله، بعد أن يفي الدهر عمـراً...إلا رضوان، خازن الجنان..."[91].

وحينما اغتم السلطان عام 584هـ/1188م بسبب تمرد بعض أتباع الـشيعة في القاهرة "...ونادوا بشعار العلويين، وصاحوا: يا لعلي، وسلكوا الـدروب ينـادون ظناً منهم أن أهل البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهـم فيعيـدون الدولـة العبيديـة ويملكون البلد ويخرجون من بالقصر من العلويين، فلم يجبهم أحد من النـاس، فلمـا خاب سعيهم تفرقوا فأُخذوا، وكُتب بذلك إلى السلطان فأهمه وأزعجه، فقال له القاضي الفاضل عبد الرحيم: ينبغي أن يفرح السلطان بذلك ولا يحزن، حيث علم من بـواطن رعيته المحبة له والنصيحة، وترك الميل إلى عدوه، ولو وضـع الـسلطان جماعـة يفعلون مثل هذه الحالة لعلم بواطن أصحابه ورعيته وخسر الأموال..."[92]، وقد اقتنع صلاح الدين بتفسير الفاضل وتحليله الذي سرى عنه وأزال همومه.

وحرص الفاضل على إكساب صلاح الدين حب جنده له وذلك مـن خـلال توجيه نظر السلطان إلى الاهتمام بالعساكر المصرية قوام سلطنته وتـوجيههم إلـى محاربة الصليبيين بعيداً عن الصراع العرقي والطائفي، وأوصاه برجـال الأسـطول وبرعايتهم وإكرامهم "...ومنها مسامحة الرجال الأسطولية، فإنهم غزاة الإسلام فـي

الكفر، ومساكين يعملون في البحر، وجند من جند الله الغالب، وفرسان مـن فرسـان الدين خيولهم المراكب[93]".

وحرص الفاضل على حشد رعايا صلاح الدين خلفه وتأييد سياسته من خلال بعض الإجراءات التي أشار بها على صلاح الدين، مثل توجيه نظر الأخير إلى رفع الظلم عن الرعية وما يتبعه من تحسين النظام الضريبي[94]، ومراقبـة الإقطاعـات وإقرار العدل وفرض هيبة النظام على الخارجين عليه، علاوة على أنـه "...أعـان المالكية والشافعية بالمدرسة، والأيتام بالكتاب، كان للحقوق قاضـياً، وفـي الحقـائق ماضياً[95]"، وعلى ما يبدو أن الفاضل كان يربط بين طلب المسامحات للرعايا مـن السلطان وبين انتصاره على الصليبيين، بحيث يستغل الحالة النفـسية الناجمـة عـن الانتصار لتحقيق رغبات رعاياه فيه من مسامحات وإعفاءات[96].

وفي الإطار ذاته دافع الفاضل عن وضع مصر وأهلها بوصفهم مـن أهـم رعايا صلاح الدين حتى وإن أدى ذلك إلى معارضة صلاح الدين ذاته، ويلمح هـذا حينما وصف الأخير مصر بالمومس ودمشق بالزوجة قائلاً: "...فكيف له أن يقـذف المستورة هذا القذف، ويهجم على خدرها بهذا الوصف، وقد وفد إليها عن شامه حين أخذ الكفر بمخناق إسلامه، فأنجدته وأصرخته وسكنت روعه وأفرحته...وإذا كانـت دمشق من عتقاء مصر، فلا فخر لها أن تكون مصر مولاتها مومسة...[97]"، وأحدث الفاضل مقابلة فيما بين مصر ودمشق وتعجب من الفارق - الذي يصب من وجهـة نظره في صالح مصر - مؤكداً في النهاية أنه لو صرخ إنسان في دمشق طالباً النجدة فإنه لن يتلقاها من أحد آخر قبل مصر، ثم أنب السلطان على لفـظ مـومس قـائلاً: "...فيجب أن لا يطلق عليها هذه اللفظة التي قابلـت قلـوب أهلهـا فوجـدوا فيهـا غلاظة...[98]"، وهنا يلمح أن الفاضل شعر أن وصف مصر بالمومس قد جرح كرامته وكبريائه مثلما جرحت المصريين الذين يعمل على استمالتهم لدعم السلطان[99].

والأكثر من ذلك أن الفاضل نظم شعراً ينكر فيه على أهل بغداد سب مـصر أو الاستهزاء بها، وهذا يعني من جهة أخرى أن الفاضل لم يتردد في الـدفاع عـن مكانة مصر وشعبها، وإن أدى به ذلك إلى القول بأنها أفضل من عاصـمة الخلافـة العباسية التي كن لها تقديره واحترامه:

أقول لبغداد إذا مـا نصحتهم: نصحتك يا بغداد، لا تشتمي مصراً
يرى الناس في بغداد للسحر آية وفي مصر موساها وآيته الكبرى

دعوا الملكين المهبطين عقوبة فإن كليم الله أورثها الفخـ ـرا[100]

وتذخر رسائل الفاضل بكثير من النماذج التي تضم بين دفتيها تقديره لمصر ومكانة شعبها وهي تصب في الغرض الذي يرنو إليه الفاضل سواء من قريب أو من بعيد ألا وهو حشد رعايا مصر خلف سياسة صلاح الدين.

وأتت ثمار الفاضل أكلها في تعميق مفهوم الولاء لصلاح الدين بين رعايـاه وموظفيه، وذلك حينما سعى رجال الدولة في الأزمات التي واجهت صلاح الدين إلى تزويد الجيش بما لهم من إقطاعات وأموال، وقد تصدرهم الفاضل الذي وقف خـراج ضياعه على المجاهدين وفكاك الأسرى والتجهيزات الحربيـة، وفـي ذلـك يقـول الأصفهاني: "...فإن صنائعه في الرقاب وأوقافه متجاوزة الحساب، لاسـيما أوقافـه لفكاك الأسرى"، وحث الفاضل رفاقه من القادة ورجال الدولة على مجاراته في ذلـك وتقديم التبرعات للجيش، بحيث حينما ظن بعضهم أن قـدوم فريـدريك بربباروسـا إمبراطور ألمانيا قد يؤدي إلى فقدان البلاد فإنه لم يبع الغلال "...فكتبت بالمنع من بيع الغلة لتكون ذخيرة لنا إذا جئنا إليكم...[101]"، هذا بخلاف مواقـف كثيـرة مـشابهة أظهرت نجاح الفاضل في تهيئة رعايا صلاح الدين ورجال دولته لدعمه[102].

وعلى مستوى علاقاته الخارجية المتعلقة بالصليبيين ومن خلفهم في غـرب أوربا فإن رسائل الفاضل تعكس فهمه واستيعابه للأبعاد العـسكرية والاسـتراتيجية المتعلقة بالصليبيين، وقد أشرنا من قبل إلى وقوفه على أن حسم القـضية الـصليبية بمثابة الهدف الأسمى لكافة الجهود التي يقوم بها المسلمون آنـذاك، وقـد أوضـحت رسائله هذه الإشكالية، ناهيك عن وقوفه على مراكز قواهم وضـعفهم؛ فـألمح إلـى خطورة فرق الرهبان العسكرية الصليبية، ولأجل ذلك فإنه كان يـرى أن الحـصون التي يسيطرون عليها تُمثل مراكز قوى يجب انتزاعها من أيديهم، وشجع صلاح الدين على التخلص من مقدميهم وقادتهم حال وقوعهم في أسره، فقال عـن إحـدى قـلاع الداوية "...وهذه المدينة قد علم الله أنها من أوسع المدائن وأمـلأ الكنـائن وأثـرى المعادن، وهي كرسي الديوية ومهبط رءوسهم ومحط نفوسهم وحمى كليبهم بل كلابهم وظهير صليبهم بل أصلابهم، وما كانت الأبصار إليها تطمح ولا الأقدار بهـا قبلنـا تسمح، ولها قلعة أنفها شامخ في الهواء وعطفها جامع عن عطفة اللواء قد أوغلت في الجو مرتفعة..."، وأردف عن فتح "...كوكب وصفد والكرك[103] فـي سـنة أربـع وثمانين وخمسمائة وأصدرنا هذه المكاتبة إلى المجلس ومما تجدد بحـضرتنا فتـوح

كوكب وهي كرسي الإسبتارية ودار كفرهم ومستقر صاحب أمرهم وموضع سلاحهم وذخرهم..."[104].

وأيد المؤرخون المعاصرون صدى رؤية الفاضل لموقف صلاح الدين من الداوية والإسبتارية وبخاصة ابن الأثير والأصفهاني، إذ أيد ابن الأثير نظرته قائلاً: "...فكان فتحاً كثيراً، فإن الداوية والإسبتارية هم جمرة الفرنج..."[105]، وذلك ضمن حملة صلاح الدين على الكرك والشوبك في بداية عام 583هـ/1187م، وأيده مرة أخرى بتبرير قتل صلاح الدين لمقدميهم عقب معركة حطين بقوله: "...فأمر بهم فضربت أعناقهم، وإنما خص هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج، فأراح الناس من شرهم..."[106]، وبخاصة أنهم على ما أشار ابن الأثير كانوا يثيرون القلق في الطرق "...فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شر ما فيهما واتصلت الطرق حتى كاد يسير فيها المنفرد فلا يخاف..."[107].

بيد أن قتل الداوية والإسبتارية لم يكن ديدن صلاح الدين على صفة الإطلاق "...وكانت عادته قتل الداوية والإسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم، فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما: ما أظن ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح، وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا..."[108].

وعكست رسائل الفاضل فهمه للعقيدة التي يحارب بها الصليبيون، ونصح إلى الطرق الكفيلة بهدمها والتغلب عليها، من ذلك أنهم يتمسكون بالصليب الصلبوت ويحاربون تحته ولا يتوانون عن حمايته "...ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصاب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عقد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه[109]"، وأكد الأصفهاني تلك العقيدة بربطه بين انهيار الروح القتالية لدى الفرنج وبين بقاء هذا الصليب مرفوعاً بينهم أو إسقاطه[110]، وربما لأجل ذلك حرص صلاح الدين على عدم إعادة صليب الصلبوت بعد وقوعه في أسره في معركة حطين 583هـ/1187م حرصاً على حرمانهم من القتال تحته فتهن عزيمتهم وتخور قواهم[111].

وصور بعض شعراء صلاح الدين ما يمكن أن يترتب على قيام المسلمين بكسر الصلبان في المعارك أمام الصليبيين، وأن ذلك أحد دلالات هزيمة الفرنج من ذلك:

هـ ـلاك الفرنج أتى عاجلاً وقد آن تكسير صلبانها.
ولو لـم يكن قد دنا حتفها لما عمرت بيت أحزانها[112].

ويستشف من رسائل الفاضل الأخرى وقوفه على مراكز الثقل فـي أوربـا كإشارته إلى وفاة فردريك بربروسا بوصفها رأس قـد قُطـع[113]، وكانـت أنبـاء تحركاته مرصودة من قبل المسلمين تحسباً لما يمثله جيشه وسـمعته الحربيـة مـن خطورة، وحرص الفاضل في مثل هذه الظروف على متابعة تحركاتـه مـن خـلال عيونه بين الصليبيين الذين تصلهم أنباء تحركاته أولاً فـأول فـضلاً عـن عيونـه الخارجية، ويرسل بما يرده إلى صلاح الدين الذي كان حريصاً علـى عـدم تـأخر وصول تلك الأنباء إليه من قبل الإمبراطور البيزنطي[114].

وقد أوضح الفاضل في رسالة أخرى ما يعانيه صلاح الدين من محـاولات خلخلة صفوف المسلمين عقب وصول أنباء خروج الإمبراطور فريدريك بربروسـا وارتفاع همم الصليبيين المحاصرين لعكا، ولأجل ذلك فقد جاءت أنباء موته فرصـة لإعادة لم الشمل والقضاء على أي تخاذل في صفوف الجـيش "...لا كـرب علـى الإسلام بعد اليوم، تتوافى بمشيئة الله ولاة الأطراف، ويزول من نفس العدو وسمعه ما استشعره بين المسلمين من الخلاف، ويجتمعون إن شاء الله على عدوهم...وقد شممنا رائحة الهدنة بطلب الرسول، وبخبر هلاك ملك الألمان...[115]".

وذهب ابن الأثير إلى أبعد من ذلك بقوله:"...وأهلك ملك الألمان لما خـرج ..عند خروجه إلى الشام وإلا كان يقال: إن الشام ومصر كانتا للمـسلمين...[116] "، وهذا يعني أيضاً أن نظرة الفاضل لم تخرج عن نظرة أهل عصره في خـوفهم مـن الشائعات التي سبقت جيش بربروسا إلى الشرق حتى ظن بعضهم أن قدوم بربروسا سوف يؤدي إلى فقدان البلاد كلها ولذا فإنه خزن الغلال ولم يبعها بحيث تكـون فـي مخزونهم يلجئون إليه في الأوقات الحرجة، وهذا أيضاً يؤكد وجهة نظر الفاضل الذي خاف كثيراً من قدوم بربروسا ولم تهدأ نفسه سوى بموته[117]، وقد برهنت الأحداث التالية دقة ما ذهب إليه الفاضل حينما انقسم جيش بربروسا على نفسه عقب غـرق بربروسا ذاته، ولم يكن للقلة القليلة التي تابعت زحفها إلى عكا وجـود مـؤثر فـي العلميات الحربية الدائرة حول عكا[118].

كما عكست رسائل الفاضل وقوفه على الرابط الذي حرك ملوك أوربا خلف الفرنج في الشرق، وهو الرابط الديني، وأبرز أن الدعم الذي يتلقاه الفرنج فـي بـلاد

الشام وبخاصة ذلك الذي صاحب الحملة الثالثة كان سبباً في إضعاف موقف المسلمين أمام عكا التي حاصرتها جموع من الصليبيين في الشرق والغرب وبخاصة في الناحية البحرية[119]، وفي ذلك يردد ابن الأثير"...كان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده، فخرجوا على الصعب والذلول براً وبحراً من كل فج عميق...[120]"، وأردف في موضع آخر بأن الغرب جمع كلمته على محاربة المسلمين، وأن البابا قد راسل الملوك والأمراء للتجهز للخروج إلى الشرق لأجل محاربة المسلمين وأن ذلك البابا بمثابة الرأس المدبر للغرب الأوربي، ومن هنا تأتي الخطورة لأن الفرنج بعدما علموا ذلك "...ازدادوا قوة وطمعاً[121]".

وأكد ابن الأثير ذلك مرة أخرى بقوله إن صليبي صور استغاثوا بأقرانهم في الغرب عقب معركة حطين "...وتابعوا الرسل إلى من بالأندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويستنجدون، والأمداد كل قليل تأتيهم...[122]"، وأيضاً"...فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء فإنهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزن الأقران....ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالاً على قدر حالهم، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء[123]".

وأشار الفاضل إلى استعانة صلاح الدين بأسرى الصليبيين في معرفة لغة أسراهم الذين لا يعرف لهم لغة في بلاد الشام، ويصور الفاضل ذلك بقوله: "...حتى إذا أُسر الأسير واستأمن المستأمن احتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ويقول ثان ما يقول أول وثالث ما يقول ثان...[124]"، وهذا في حد ذاته يعكس مصداقية الفاضل بشكل غير مباشر، لأن تعدد الألسنة واللغات يعكس التنوع الجغرافي والتعدد العرقي والجنسي للصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الثالثة استجابة للتعبئة المعنوية والأيديولوجية التي قام بها نواب البابوية في الغرب الأوربي على أساس ديني، وهذا يبرر سعي الفاضل الحثيث لجمع كلمة المسلمين على دينهم لأنهم ليسوا أقل من الصليبيين أو أضعف منهم كي يجتمعوا على رابطة الدين.

وتجاوزت خبرة الفاضل إلى وقوفه على أسلحة الصليبيين وأدواتهم الحربية، يبدو ذلك في رسالة استغاثة بعثها إلى الخليفة العباسي الناصر عام 587هـ/1191م من أمام عكا التي تحاصرها جيوش الحملة الصليبية الثالثة، من ذلك أن الصليبيين كانوا يصنعون حصوناً تحيط بمخيماتهم في أثناء عمليات الحصار التي فرضوها على عكا، وعن تنوع وسائل الحرب عندهم أردف بأن لديهم "...تنوع في المكائد، فإنهم

قاتلوا مرة بالأبرجة وأخرى بالمنجنيقات ورادفة بالدبابات وتابعة بالكباش وآونة باللوالب ويوماً بالنقب وليلاً بالسرابات وطوراً بطم الخنادق، وآناء بنصب السلالم ودفعة بالزحوف في الليل والنهار وحالة في البحر بالمراكب".

بل وأشار إلى عمل الفرنج ساتراً من تراب كانوا يتقدمون من خلفه "...ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السور من التراب وتلالاً تشبه الأبرجة مدورة ورفعوها بأخشاب وعلوها بالحجارة، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول وترتفع حالاً بعد حال حتى صارت منه كنصف غلوة سهم، وقد كان الحجر والنار يؤثران في أبرجة الخشب وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب لا تؤثر فيها الحجارة ولا تعمل فيها النار الحامية[125]".

ويلحظ من دراسة رسائل الفاضل وفي رؤيته للقوى السياسية الموجودة على الساحة الشرقية والغربية وجود ثلاث دوائر مختلفة للقوى الصليبية: دائرة الفرق العسكرية الدينية ثم دائرة كبرى ممثلة في كبار الملوك والأمراء، ثم الدائرة الأوسع ممثلة في الدعم الأوربي من قبل الملوك والأمراء والبابوية، وقد حصر تلك الرؤية في العامل الديني، وربط بين الثلاث أحياناً وداخل بينهم حيناً آخر، وفي المقابل فإنه حث على وجود جبهة مشابهة تكون دار الخلافة حلقتها الأكبر ثم صلاح الدين في الحلقة التالية ومن ثم الأمراء الصغار على أن يسخر جميع ذلك لخدمة ما يقوم به صلاح الدين الذي سيحقق بالضرورة مجداً لكافة الحلقات الثلاث، بخلاف الحلقات الصليبية التي لن يجني ثمار نجاحها سوى من يعيشون بالشرق، وقد أبان الفاضل من تعرضه لتلك القضايا وفهمه لها سواء أكانت خاصة بالمسلمين أم بالصليبيين عن خبرة بهذه الأمور سواء السياسية والعسكرية، فكان خير معين لصلاح الدين على اتخاذ القرارات الصعبة.

وهكذا كان فكر الفاضل موجوداً إلى جوار صلاح الدين – على ما تعكسه رسائله - سواء في سعيه للوصول للحكم أم في توحيده السياسي والعسكري للمسلمين في مصر والشام، علاوة على حشده للرأي الشعبي العام للمصريين والشاميين خلف سياسة صلاح الدين بعدد من الإجراءات الدعائية المحددة لسياسة صلاح الدين، ووعيه بمراكز قوى الصليبيين ونقاط ضعفهم وأسلحتهم وما إلى ذلك من القضايا التي يرى صداها في رسائل الفاضل وديوانه فجاءت تنظيراً معاصراً ودقيقاً لسياسة صلاح

الدين وحروبه، ليصدق فيه الطرح الأول لهذه الدراسة والقائم على مقولة صلاح الدين "لا تظنوا أني فتحت البلاد بالسيوف، إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل".

وقد وقف الباحث على أن المصادر غير الرسمية على غرار النثر - الرسمي منه كوثائق الفاضل الديوانية وغير الرسمية كوثائقه الإخوانية ناهيك عن الشعر- تقدم مادة تاريخية قيمة وذلك إذا ما تم استخدامها في ضوء الخلفيات التاريخية المستمدة من المصادر التاريخية الرسمية، وأن نجاح حروب صلاح الدين قد اعتمدت ضمن ما اعتمدت على الفاضل اعتماداً كلياً في تدبير كثير من شئون الدولة الأيوبية خصوصاً النواحي الداخلية والعلاقات الدبلوماسية، وأن عقلية الفاضل وثقافته وعلمه قد مهدت لصلاح الدين الكثير من الأمور التي كان في غنى عن شغل عقله بها، والأكثر من ذلك أنه يلمس أن خطى صلاح الدين جاءت نتيجة لخطة مدروسة فيما بينه وبين القاضي الفاضل، من خلال تصوره الاستراتيجي القائم على توحيد العالم الإسلامي عامة، ومسرح العمليات ضد الفرنج خاصة: إدارياً من خلال حكم واحد، وعسكرياً من خلال جيش موحد القيادة، وعاطفياً من خلال مظلة أو راية واحدة ينضم جميع المسلمين تحت لوائها، وبالرغم من السلطات الكثيرة التي تفرد بها الفاضل فإنه لم يسع إلى إساءة استخدامها في تكوين مجد شخصي أو ثروة مالية، وإنما تحرك في حدود المتاح وخدم دولة صلاح الدين بحب يندر لمسه في ذوي المناصب الحساسة.

---

[1]- أكد عدد من المؤرخين قوة العلاقة التي ربطت بين الفاضل وصلاح الدين، بحيث اعتمد الأخير كثيراً على استشارة الفاضل في معالجة أمور دولته، فقال ابن الأثير: "...كان يُكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان، وكان السلطان صلاح الدين يعظمه ويحترمه ويكرمه ويرجع إلى قوله..."، وأردف ابن خلكان: "...تمكن منه غاية التمكن، يعني من صلاح الدين..."، وقال الأصفهاني: "...وهو ضابط الملك بآرائه ورابط السلك بآلائه..." و"...السلطان له مطيع، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرائه..."، وأشاد ياقوت الحموي بحنكة الفاضل السياسية بقوله: "...والدنيا تدبر برأيه وصلاح الدين سلطان البلاد لا يرد له أمراً..."، وقال البنداري في المعنى ذاته: "...لا زالت أقلامه لمقاصد النجاح محررة وأحكامه لقواعد الصلاح مقررة...". انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ10، دار الكتب العلمية، لبنان، 1987م، ص268؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، جـ3، دار صادر، بيروت، 1973م، ص158-163؛ الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: شكري فيصل، جـ1، دمشق، 1955م، ص35؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، طـ1، جـ4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993م، ص1562، 1563-1566؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وآخرون، طـ1، جـ29، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ/2004م، ص8-10؛ البنداري: سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1979م، ص144.

[2]- الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، دار المنار، 2004م، ص119.

الواقع أن رواية الأصفهاني طويلة وتشيد بما قدمه الفاضل لصلاح الدين من نصح وتوجيه ورعاية لأمور الدولة "... فأراد السلطان أن يقدم بلقائه الاجتماع وبرأيه الانتفاع، ويستنير بنوره ويستشيره في أموره ويفاوضه في تفويضاته، ويقلده في تقليداته، ويتبرك بميامنه ويتيمن ببركاته..." وشهادة الأصفهاني هنا قيمة للغاية، لأنه لن يُجامل الفاضل على حساب سلطانه صلاح الدين وإلا لفقد حظوته لديه حينما يصوره بأنه يحصل من الفاضل على توجيهات ونصائح، وبخاصة أن كتاب الفتح القسي الذي سطر فيه تلك المقولة سوف يُعرض على كل من الفاضل الذي يعترف الأصفهاني بأنه قدمه له كي يراجعه وهو من اقترح اسمه، وعلى صلاح الدين الذي كان يُسعده أي

عمل تاريخي يحضه على الحرب، والحالة هذه فإن صلاح الدين سوف يطلع على الكتاب ومن ثم فلن يجامل الأصفهاني صورة الفاضل بقدر ما سيُقر وضع قائم لن يُقلل من شأن صلاح الدين ولن يجعل للفاضل فضل عليه. انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص119.

[3]- أدرك عدد كبير من الباحثين هذه الحقيقة ومنهم ملكوم ليونز وديفيد جاكسون الذين أكدا أنه "لم يُعرف أي كاتب بأنه تسنم منصباً بالنسبة إلى سيده يضاهي ذلك المنصب الذي بلغه الفاضل مع صلاح الدين، فلقد قيل إن البلاد لم تُفتح بجيوش صلاح الدين، بل بقلم الفاضل، والكاتب المثالي - استنادا إلى ابن مماتي - يجب عليه أن يهتم ليس بإعطاء الانطباع بأن مستخدمه هو في حاجة إليه، انه نُقل عن الفاضل بأنه خالف هذه القاعدة وكتب الرسائل التي حررها لصلاح الدين". انظر: ملكوم ليونز وديفيد جاكسون: صلاح الدين، ص77.

ومصداقاً لذلك نشير إلى أن الفاضل لم يترك أمراً دون أن يفكر فيه، فقدم الحلول وبعث بالأمر والحل معاً لصاحب الأمر، فإن صادف رأيه وغالباً ما كان يحدث هوى لدى صلاح الدين فإن الفائدة تعم، ويظل ذهن سيده مركزاً فيما يشغله، ووصل الأمر في ذلك إلى الإقطاعات والعفو والمسامحات والأوقاف وما إلى ذلك من قضايا طرأت للفاضل وقدم لها حلاً ولكن توقف تنفيذه على موافقة صلاح الدين. انظر: القاضي الفاضل: مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، تحقيق: إلياس مخلوف، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1967م ص80، 93، 110-113، 115.

[4]- هادية الدجاني: القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، دوره التخطيطي في دولة صلاح الدين وفتوحاته، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1993م.

[5]- سوسن محمد نصر: القاضي الفاضل وصلاح الدين عمادا الوحدة المصرية الشامية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1975م.

[6]- يعرف الفاضل بأنه عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد بن المفرج بن أحمد القاضي الفاضل محي الدين أبو علي بن القاضي الأشرف اللخمي البيساني العسقلاني في بيسان - وقيل عسقلان - في منتصف جمادى الآخر عام 526هـ/1131م، وسمع الفاضل الحديث من الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وأبي طاهر السلفي وأبي محمد العثماني وأبي الطاهر ابن عوف وغيرهم، وعلى المستوى الشخصي فقد تميز الفاضل بعدد من الخلال منها التدين والتقوى والتقشف والصفح والحلم والعفو والستر، وكان كثير البر والصدقة مقتصداً في ملبسه وطعامه، كثير التشييع للجنائز وعيادة المرضى، وله تهجد في الليل لا يخل به، وتوفي سنة 596هـ ، ودفن بسفح المقطم بظاهر القرافة بالقاهرة. انظر: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، 1964م، ص166-168. وعن يوسف بن محمد بن الخلال رئيس ديوان الإنشاء وصاحب الفضل على القاضي الفاضل انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص219-225، جـ7، ص220-221.

[7]- يُعد الفاضل بمثابة إمام الأدباء وقائد لواء أهل الترسل وصاحب صناعة الإنشاء، وقد أجمع أهل الأدب على أن الله تعالى لم يخلق في صناعة الترسل من بعده مثله ولا من قبله بأكثر من مائتي عام وربما زادوا. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص158-163، جـ7، 220-221؛ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، جـ7، ص167؛ النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص9. وأيضاً: محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف المصرية، القاهرة، ص193-200.

[8]- النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص9-10؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ7، ص220-221. وأيضاً: محمد زغلول: الأدب في العصر الأيوبي، ص193 - 194.

تردد الفاضل على مجالس القاهرة في مدة تدريبه في ديوان الإنشاء في ظل الفاطميين، علاوة على المكتبات والخزائن التي حوت الآلاف من الكتب القيمة، مثل مكتبة القصر المشهورة ودار الحكمة التي أسسها الخليفة الحاكم بأمر الله (ت411هـ/1005م) في قصره وجعلها كالجامعة، فضلاً عن الجوامع والمساجد مثل الأزهر، وقد رأى الفاضل في القاهرة مركزاً ثقافياً زاهراً فأفاد منه في تكوينه الثقافي. أما حنكته السياسية التي تجلت بأوضح مظاهرها بعد نحو عشرين عاماً من دخوله القاهرة فقد استمد أصولها من الأحداث السياسية التي شاهدها وعاصرها، وهناك تفتحت مواهبه في الكتابة وفي نواحي عديدة من الإدارة ربما كان منها إدارة الجيش، وأنشأ رسائل كانت ترد من ديوان الإنشاء في القاهرة لفتت بلاغتها نظر الموظفين والكتاب والإداريين، فرأى بعضهم ضرورة عودته إلى القاهرة، بينما أعاقه بعضهم الآخر وعارضوا عودته، غير أن عودة الفاضل جاءت من سلطة أعلى هذه المرة، فحينما ارتقى العادل ابن طلائع ابن رزيك الوزارة فإنه استدعى الفاضل من الإسكندرية وولاه رئاسة ديوان الجيش، وهو من أسمى مناصب الإدارة الفاطمية، ولقب الفاضل وقتها بالقاضي الأسعد. انظر: عمارة اليمني: النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، القاهرة، (د.ت)، ص53-54؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: محمد حلمي أحمد، جـ3، القاهرة، 1996م، ص214؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ7، ص220-221؛ النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص9-10.

[9]- صار موقف الفاضل أكثر قوة في مصر عن ذي قبل، بوصفه نائباً لديوان الإنشاء عن ابن الخلال الذي فقد بصره وصار حبيس بيته، وبوصفه رئيس ديوان الخليفة العاضد الفاطمي، مثلما صار مستشاراً لكل من الكامل وشاور ومسئولاً عن جميع المراسلات الواردة على مصر وعنها، وكانت عينه هو والكامل متابعة لخطى شاور الذي ورط عموري في مصر وكان من نتيجته الوجود الفعلي للأخير في مصر وما نتج عنه من حرق شاور للفسطاط لمقاومة عموري وذلك في عام 563هـ/1167م، وهنا راسل الكامل والعاضد - وبواسطة الفاضل - نورالدين لكبح شاور ووضع حد لتدخل عموري في مصر، بمعنى أن أشعار الفاضل تشير إلى قيامه بدور كبير في تحويل سياسة الكامل في اتجاه نورالدين بدلاً من الصليبيين، ولأجل ذلك ربما عمل بواسطة ابن الخلال ومساعدته

على نيابة الكامل عن أبيه في الوزارة كأول حدث من نوعه، ربما لتكون تحركاته رسمية من خلال الكامل، وكتبت رسائل الإغاثة بقلم الفاضل إلى دمشق وحلب وبعلبك وغيرها نيابة عن العاضد وشاور وولده الكامل، وله في ذلك شعر رائع إلى نورالدين. انظر: النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص9-10. وأيضاً: محمد زغلول: الأدب في العصر الأيوبي، ص194.

[10]- البنداري: سنا البرق الشامي، ص131-134، 140. وأيضاً: محمد زغلول: الأدب في العصر الأيوبي، ص194 - 195

تُلحظ خبرة الفاضل الإدارية والميدانية وما يسمى بالخدمات الخلفية للجيوش في غزوة الرملة عام 573هـ/1178م وفي حصار الصليبيين لمدينة عكا في الحملة الصليبية الثالثة، حينما تمركز في الأولى عند العريش كي يُؤمن الانسحاب ويحمي المؤن والإمدادات وحماية خط الرجعة وفي الثانية حينما شغل منصباً قيادياً خلفياً آمن لمركز تجمع جيوش صلاح الدين، وتأمين الإمدادات والمؤن والإشراف على تبديل الجند، كما ظهر هذا الدور في مواضع أخرى عول فيها السلطان على الفاضل التحرك بالجيوش سواء إلى دمشق على ما حدث في أواخر عام 579هـ/1183م عقب الانسحاب من أمام الكرك، أم بمرافقة تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخي صلاح الدين ومصاحبته إلى مصر وتوجيه النصح والإرشاد له في نهاية ذلك العام. انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص85-86؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص233-235. وأيضاً: هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص324.

[11]- تتضح تلك الحقيقة من تعريف الفاضل لبعض المصطلحات العسكرية المتداولة في عصره عن الجيوش، ففي تعريفه للطلب يقول: "...الطلب بلغة الغز هو الأمير المقدَّم الذي له علم معقود وبوق مضروب، وعدة من مائتي فارس إلى مائة فارس إلى سبعين فارساً"، وعرف الطواشي بأنه "...من رزقه من سبعمائة إلى ألف إلى مائة وعشرين وما بين ذلك، وله برك من عشرة رؤوس إلى ما دونها، ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل، وله غلام يحمل سلاحه وقراغلامية"، وأما عن ترتيب هؤلاء فمن الأمير إلى الطواشية إلى قراغلامية من أعلى السلم القيادي إلى أسفله. وكان الفاضل على علم بما يتقاضاه هؤلاء فرادى وجماعات، أي المبلغ الذي يحصل عليه كل فئة ومجموع المبالغ التي يحصل عليها الجميع، والذي قدره في رجب سنة 577هـ/1181م بأن رواتب الجيش لم تقل عن ألف ألف دينار (أي مليون). انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ1، دار الطباعة المصرية، القاهرة، 1853م، ص86-87؛ النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص9-10؛ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ص114، 118-123. وأيضاً: هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص56-58، 129.

[12]- هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص135.

[13]- هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص155-157.

[14]- عن عموري الأول ملك بيت المقدس وسياسته الخارجية انظر: حجازي عبد المنعم: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس في عهد الملك عموري الأول، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنوفية، 2006م. وأيضاً:

Amalrici, Regis Hierusalem, ad Henricum, in RHGF, t. XVI, pp.187-188; Migne, *Cartulaire dans Patrologie Latine*, t.200, coll.600; Alexander III, in Richard, p.71; *Revue de L,Orient Latin*, I, pp.144-150. See also: Rohricht, R., *Geschichte des Konigreichs Jerusalem*, (Innsbruck, 1898), pp.455-456, 466; Rohricht, R., Amalrich I Koig von Jerusalem", in *Miabeilugem des Institus fur Osterreicbiscbe Gescbicisfasrschung*, XII, (1891), pp.432–481.

[15]- القلقشندي: صبح الأعشى، جـ13، ص83.

[16]- القاضي الفاضل: ديوان القاضي الفاضل، تحقيق: أحمد أحمد بدوي، جـ2، دار المعرفة، القاهرة، 1961، ص417.

[17]- أشارت هادية الدجاني إلى نقطة غاية في الخطورة ممثلة في حرص الفاضل على الانتقام من الفاطميين بسبب قيامهم بتجريد والده من منصبه وأمواله، فحُرم الفاضل وإخوته من مصدر رزق والدهم وصاروا يعتمدون على ما يحصله الفاضل من عمله في ديوان الإنشاء، ناهيك عن أنه شاهد بنفسه مؤامرات كثيرة أودت بحياة بعض الكتاب الأكابر مما ولد في نفسه ألماً تجاه الفاطميين. انظر: هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص63-65.

[18]- هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص158.

[19]- النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص9.

[20]- ثمة غموض في ملابسات دور الفاضل في أحداث حصار صلاح الدين لحصن الكرك، وبخاصة أن الأخير حاصر الحصن أكثر من مرة، سواء قبيل وفاة نورالدين محمود أم بعد وفاته وحتى بعد معركة حطين، وقد أشار البنداري إلى وجود الفاضل مع صلاح الدين أمام الكرك في عام 579هـ/1183م، وقام الفاضل بدور مهم في قيادة جنود صلاح الدين إلى دمشق، كما ورد في رسالة للفاضل إلى الخليفة العباسي ما يُشير إلى وجوده في أحداث محاصرة الكرك عام 580هـ/1184م وذلك على الرغم من تحركه إلى مصر بصحبة تقي الدين عمر بن شاهنشاه في نهاية عام 579هـ/118م، ومن ثم فإن تتبع مرافقة الفاضل لصلاح الدين مضنية ربما لكثرة تحركاته بناء على توجيه صلاح الدين. انظر: البنداري: سنا البرق الشامي، ص233-235، 242-243. وأيضاً:

Richard of Holy Trinity, Itinerary of Richard I and others to the Holy Land (formerly ascribed to Geoffrey de Vinsauf), (Cambridge, Ontario, 2001), pp.4-5,121-122,203.

[21]- عن الرواية الكاملة وحقيقة ما حدث وما ساقه الأصفهاني عن المعركة انظر: البنداري: سنا البرق الشامي، ص252-264.

[22] -*Itinerary of Richard I*, pp.4-90,91-140.

صحب الفاضل حملات صلاح الدين الأولى أبان العصر الفاطمي على غزة وعسقلان وأيلة سنة 566/1170-1171م، ورافقه في حملاته على عسقلان والرملة سنة 573هـ/1177-1178م، ولكنه كان مريضاً في دمشق حينما انتصر المسلمون في حطين سنة 583/1187م، وحالما عُوفي فإنه رافق صلاح الدين إلى عكا عام 583هـ/1187-1188م وشاركه في تنظيم الدفاع عن المدينة، وشارك في فتح حصن كوكب سنة 584هـ/1188-1189م، ورافقه خلال الأحداث العسكرية التي دارت حول عكا منذ 586/1190م وحتى 589/1193م، وظل مستشاراً لبعض أبناء صلاح الدين عقب مماته حتى توفي الفاضل سنة 596هـ/1199-1200م. انظر:

Itinerary of Richard I, pp.202-246.

[23]- الإطار الزمني لحروب صلاح الدين: بدأت حروب صلاح الدين لتوحيد المسلمين ثم ضد الصليبيين بمجرد وفاة نورالدين عام 569هـ/1174م واستقلاله بمصر وإعلانه قيام الدولة الأيوبية، وقد بدأت تلك الحروب من الداخل أولاً بهدف إعادة الوحدة إلى دولة نورالدين قبل أن يصيبها التفكك الذي غلب عليها عقب وفاته مباشرة، ومن هنا انطلق صلاح الدين إلى بلاد الشام فضم دمشق وحمص وحماة ثم حلب، وعقد الصلح مع المواصلة بعد حروب لم تأت بنتيجة. وصاحب ذلك حروباً أخرى معاصرة ومتداخلة ضد الصليبيين في غزة وبيسان وعسقلان والكرك في أعوام 471، 476، 477هـ وما إلى ذلك من حملاك ضد الكرك والشوبك، ثم حينما أتم الوحدة فإنه هزم الصليبيين في حطين واسترد أغلب المدن الساحلية من أيديهم ودلف إلى الداخل إلى بيت المقدس واستعادها 583هـ/1187م، وعقب ذلك فإنه حارب جيوش الحملة الصليبية الثالثة التي فرضت حصاراً قوياً على عكا انتهى بالاستيلاء عليها ثم تبع ذلك محاولات ريتشارد قلب الأسد استعادة المدن الساحلية ومحاولات صلاح الدين عرقلته، ثم تأتي الخاتمة بصلح الرملة ووفاة صلاح الدين في العام التالي 1193م. انظر:

Itinerary of Richard I, pp.4-90, 202-246.

[24]- تعرض الفاضل خلال حياته المهنية التي رافق صلاح الدين في أغلبها لعدد من الأمراض، وقد أشار في بعض رسائله إلى كبر سنه وتكالب الأمراض عليه، وأشار غيره إلى ذلك "...لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عنده القاضي الفاضل مودعاً له ومستشيراً وكان مريضاً وودعه.." وذلك في عام 584هـ، وأيضاً "...وكان...الفاضل...متأخراً في بيته بدمشق لشكاة أقام في غيرها، واستقام مزاجه الكريم منها وهو في ترقب زوال أثرها..."، وكان ذلك قبيل توجه السلطان مباشرة للدفاع عن عكا ووقت تقدم الملك جاي لوزينان لمحاصرتها انتظاراً لقدوم الدعم الأوربي الممثل في الحملة الثالثة.

وبالرغم من أمراض الفاضل الكثيرة فإنه تمالك نفسه وساعد صلاح الدين في الإشراف على شئون مصر وتزويد صلاح الدين بالمؤن والإمدادات، فعقب فتح السلطان لحصن كوكب "..ودعه الأجل الفاضل على عزم مصر بعدما استكمل لنا مدة مقامه بصدق اهتمامه وجد اعتزامه الفتح والنصر..."، وذلك بغرض الحصول على المؤن والإمدادات، وكانت تلك المرة التي رافق فيها الفاضل صلاح الدين عقب عودته الثانية منذ فتحه القدس583هـ/1187م، ففي الزيارة الأولى كان الفاضل مريضاً ولا نتوقع مصاحبته للسلطان على علته، ويرجح أن يكون قد صحب السلطان حينما عاد في المرة الثانية التي تلاها فتحه لحصن كوكب وذلك في أواخر عام 584هـ1188م، والرواية على قصرها تؤيد أن الفاضل تحرك للحصول على الإمدادات من مصر، وأن وجوده في معسكر الجند كان يرفع من معنوياتهم. انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص119، 148؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص160؛ ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص85-86، 166.

[25]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص82-83.

[26]- مجموعة الوثائق الفاطمية، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، ص9-11. وأيضاً: ابن الصيرفي: قانون ديوان الإنشاء، القاهرة، 1905م.

أشرف الفاضل - سواء في مرضه أم في عافيته - على إرسال الجنود والميرة تباعاً وبعث بها إلى صلاح الدين حتى جاء بنفسه لحضور حصار الحملة الصليبية الثالثة لمدينة عكا، وللإشراف على الجنود واستبدالهم، وتعيين العيون، وفي دمشق استقبل الأسرى والغنائم، وأشار حينها إلى حزنه الشديد على عدم وجوده إلى جوار صلاح الدين وقت دخوله بيت المقدس سنة 583هـ/1187م، ولكنه راجع نفسه مُرضياً إياها بالنصر الكبير الذي حققه صلاح الدين، ومقنعاً ذاته بأن من بجوار صلاح الدين قد قاموا بدورهم وقام هو الآخر بدوره. انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص53.

[27]- تقضي الطريقة الفاضلية بالتزام السجع والطباق، وفنون البديع الأخرى المستخدمة في الشعر من تورية وجناس واقتباس آيات القرآن، وتضمين الشعر والمأثور من الأقوال ومصطلحات العلوم، والتوسع في المعاني الخيالية، والمبالغة في صنع ألوان البيان. انظر: أحمد حسين الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار الحكمة، بيروت، ص 2005، ص413-415.

[28]- تحدث بعض المؤرخين والأدباء عن رسائل الفاضل وعن قدرته وبراعته الفائقة في صياغتها، فقال الأصفهاني: "...إن شاء أنشأ في اليوم الواحد بل في الساعة ما لو دُون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة"، بينما أقر

ابن خلكان أن "...مسودات رسائله في المجلدات والتعليقات إذا جُمعت ما تقصر عن مائة مجلد وهو مجيد في أكثرها"، وألمح النويري إلى المعنى ذاته بقوله: "...هو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره..."، ثم وصف النويري رسائل الفاضل بأنها كثيرة ولكنه لم يذكر سوى ما وقع تحت يديه منها ليس لأهميتها أو لأفضلية على غيرها لأنه يعد رسائل الفاضل كلها مختارة ومميزة "...وكلام القاضي الفاضل...كثيرٌ، بأيدي الناس منه عدة مجلدات، أخبرني من أثق بقوله...أنه يزيد على خمسين مجلداً قد جُمعت، أما ما لم يجمعه الناس فكثير جداً...". انظر: الأصفهاني: خريدة القصر، جـ1، ص35؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص158-159؛ النويري: نهاية الأرب، جـ8، ص3. 42-43.

[29]- النويري: نهاية الأرب، جـ29، ص7.

[30]- النويري: نهاية الأرب، جـ5، ص148.

[31]- القلقشندي: صبح الأعشى، جـ8، ص289. والرسالة تحوي أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في معركة حطين، وفي اختصار غير ممل ولا مخل أجمل الفاضل وقائع تلك المعركة، من هزيمة الجيش الصليبي وأسر الملك جاي لوزينان وكل من هو معروف من بينهم عدا كونت طرابلس ريموند الثالث، وتفهم الفاضل قيمة وقوع صليب الصلبوت في أسر صلاح الدين لأن الصليبيين يقاتلون تحت رايته أصدق قتال، وأشار إلى مروره على موضع المعركة فيما بعد وسروره برفع الراية العباسية على المنطقة، ثم أشار إلى تحول صلاح الدين إلى المدن الصليبية والمواني واسترداده أغلبها، ومنها إلى بيت المقدس التي توافد عليها أغلب الصليبيين لحمايتها والامتناع بأسوارها وخنادقها وكثرة من بها على صلاح الدين لدرجة أن الفاضل قدم وصفاً دقيقاً لعلميات الحصار وتحايل صلاح الدين على قوة السور بالانتقال إلى أضعف نقاطه، وباشر ضربها بالمنجنيق ومعاول دك الأسوار، وفلسف الفاضل موقف صلاح الدين من قبول دخول القدس عن صلح كما عرض بليان أوف ابلين وليس عن حرب وعنوة وبخاصة أن الصليبيين أشاروا في حالة رفض عرضهم إلى قتل أسرى المسلمين بالمدينة، ولن يُسلموا البلد إلا بعد قتلهم من المسلمين الكثير، فأدرك صلاح الدين أن الخسائر سوف تكون كثيرة لديه ولدى عدوه، وأنه قد يتعرض للنجاح وقد يتعرض للفشل، ناهيك عن ملل جنوده من الحرب التي طال أمدها وحرصه على نيلهم قسط من الراحة، علاوة على تخوف صلاح الدين من حدوث مذابح قد تُستخدم في تأليب الغرب على المسلمين، ولأجل ذلك وغيره فقد قبل صلاح الدين الصلح وتسلم القدس وشرع في عمارة أسوارها وإعادة الخطبة العباسية على منابرها بعد انقطاع ناهز القرن، وأن صلاح الدين ينوي مواصلة الحرب ضد الصليبيين ولكنه بحاجة إلى إراحة الجند وبخاصة أن البلاد التي استردها تحتاج إلى اهتمام كبير من جنده وإلى إصلاح ما تهدم من حصونها وأسوارها. والرسالة ببساطة تعرض ملخص مسيرة صلاح الدين المهنية ضد الصليبيين حتى آخر شعبان من عام 583هـ/1187م. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ8، ص286-289. وأيضاً: البنداري: سنا البرق الشامي، ص296. قارن ذلك بما ورد لدى المؤرخ المجهول:

Itinerary of Richard I, pp.4-5,121-122,203.

[32]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص216-217.

[33]- البنداري: سنا البرق الشامي، ص138-139.

[34]- ارتبط اسم الفاضل في الفترة التالية باسم الكامل بن شاور بحيث كان مستشاراً له لمدة عامين تقريباً، تعلم خلالها أن الحرية لا تُقدر بثمن وصار الحذر ديدنه، وهي الفترة التي علمته أيضاً كيفية فهم الأحداث السياسية الدائرة من حوله، وقد أبان في شعره ما ينم عن فهمه الدقيق للأحداث التي جرت في الصدام الأول بين شيركوه وشاور، وصرح بأن شاور لعب على كل من عموري ونورالدين لصالح مركزه دون أن يأبه للعواقب، بل لقد زكى الفاصل هذه السياسة طالما تصب في مصلحة مصر فقال:

فيا أخا الفضل فينا وابن والـــده ... فـــــــــكم تكفل فتى من أبيك أب
تلقى العدا بالعدا! حدث به عـجبا ... أن الهدى خدمت في نصرة الصلب
عمائم السمر في أيمانكم قـــــمم ... لها الذوائب من أغدائكم عـــــــذب

وقال أيضاً:

سرى ملك الإفرنج ينصر جمعهم ... فما ضرهم في نصرة الحق كفره

انظر: القاضي الفاضل: الديوان، جـ1، ص150، 200.

وقد حرص الفاضل على مصاحبة شاور وعموري في تصديهم لشيركوه وذلك بوصفه موظفاً إدارياً في ديوان الجيش ونائباً لديوان الإنشاء، ويرجح أيضاً أنه شهد التحالف الذي تلا هذه المعركة بين عموري وشاور من جهة وبين شيركوه وصلاح الدين من جهة أخرى، وهو التحالف الذي نتج عنه معاهدة جعلت مصر أشبه بمحمية صليبية، وتشير هادية الدجاني أن حدثاً كهذا جعل من الفاضل وابن الخلال وغيرهما يعملون على تغيير مجرى التاريخ في مصر لضمان عدم حدوث ذلك في المستقبل، وذاك ما يتضح من انضمام الفاضل إلى الكامل الذي اتجه لمساندة نورالدين بعيداً عما يفعله شاور، وكان الفاضل كاتب رسائله إلى نورالدين في الفترة التالية. انظر: هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص92، 99-100.

[35]- أعطى الفاضل في شعره الكثير لبني رزيك وشاور وبنيه ولكنه لم يعطهم ذلك القدر من نثره، وعلى العكس أعطى صلاح الدين أغلب إنتاجه من رسائله، وفي المقابل فإن أشعاره عن سياسة صلاح الدين وحروبه لم تبد جلية في الديوان أو في أشعاره المجموعة. ويرجح أن الفاضل نظم أشعار المديح فيمن سبق صلاح الدين وكذا الفخر والغزل ولم يفعل ذلك أو يكثر منه مع صلاح الدين لأنه عانى الأمرين قبيل تعرفه على صلاح الدين، وبخاصة من

الناحية الاقتصادية، والمعروف أن الشعر في تلك الفترة كان بمثابة صنعة أو حرفة للتعيش والاسترفاد، وعليه ربما استخدم شعره وأكثر منه كي يُحسن من وضعه المالي والاقتصادي على غرار أقرانه من الشعراء، أما وقد تحسنت أوضاعه وصار في ظل صلاح الدين من الميسورين فإن حاجته إلى الاسترفاد من الشعر كانت بلا داع ناهيك عن العوامل السابقة، وقد يكون في جميع ذلك سبب مُقنع بالنسبة له بأنه لا حاجة له إلى معالجة سياسة صلاح الدين بالصورة التي عالج بها حروب الفاطميين في الفترة السابقة على التحاقه بخدمتهم. انظر: القاضي الفاضل: الديوان، مقدمة الديوان للمحقق.

[36]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص229-230.

[37]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص178.

[38]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص243؛ النويري: نهاية الأرب، جـ8، ص7.

[39]- البنداري: سنا البرق الشامي، ص233-234.

[40]- البنداري: سنا البرق الشامي، ص278.

[41]- من تلك المواقف استشارته لهم في الصلح مع الملك ريتشارد وحيثيات ذلك القرار، فكان دورهم ممثل في محاولتهم إقناع السلطان بالاستجابة للصلح، وعددوا له كافة العوامل التي تُشير إلى ضرورة راحة الجند كي يتيسر للجميع التقاط الأنفاس وجمع المؤن والإمدادات وما إلى ذلك فوافقهم صلاح الدين وعقد صلح الرملة مع ريتشارد عام 589هـ/1192م. انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص315.

[42]- تُشير الرسالة إلى التماس الفاضل من صلاح الدين تعيين خطيب عيذاب في خطابة الكرك، وفي الرسالة توصية بالغة من الفاضل في حق هذا الرجل، والمعروف أن الكرك كانت منطقة حساسة وموقعها خطير ولا يُفترض بعد استردادها أن توضع في أيدي من لا يثق فيهم، والرسالة توضح قضية أخرى ممثلة في أنه بالرغم من حرص الفاضل على عدم شغل صلاح الدين بمثل هذه القضايا الصغيرة فإنه لم يترك لحساده والغيورين فرصة الكيد له باتهامه بالانفراد بالتصرف بالأمور دون العودة إلى صلاح الدين بالرغم من أن الأخير أعطاه هذا الحق وأقره عليه. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ3، ص159.

[43]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص243. وأيضاً: البنداري: البرق الشامي، ص90.

[44]- أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب ركن الدين، وقيل جمال الدين (ت:575هـ/1180م): أحد رجال الأدب المغربي، وقد رحل إلى المشرق خلال القرن الهجري السادس وبالرغم من إخفاقه في رحلته فإنه ظل مقيماً في الشرق على هامش الحياة، وتسكع زمنا قبل أن ينتبه بعضهم إلى علمه وفقهه، ويبدو أن مغربيته الصريحة التي ظل ينوه بها في رسائله حالت بينه وبين إقامة علاقات قوية مع رجال المشرق على خلاف معاصره ابن جبير الرحالة الأندلسي المشهور الذي عرف بدبلوماسيته وحسن مداخلته لأهل المشرق خاصتهم وعامتهم، أما الوهراني فصب جام غضبه على الجميع ولم يفرق بين الكبار والصغار ولذا لا نستغرب موقفه من الفاضل أو غيره. انظر: ركن الدين الوهراني: منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان ومحمد نغش، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1968م، ص152-153. وأيضاً: هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص55-56.

[45]- أكد ملكوم أن عبقرية صلاح الدين لم تكن فقط في حروبه ونشاطاته القتالية بل وأيضاً في اختيار رجاله ومعاونيه ووضع كل منهم في موضعه ولا شك أن نجاحه اعتمد بشكل كبير على وزن الرجال الذين اختارهم وعلى رأسهم القاضي الفاضل. ملكوم ليونز وديفيد جاكسون: صلاح الدين، ص76.

[46]- وُلد الأسعد بن المهذب بن مينا بن زكريا، المعروف بابن مماتي سنة (544هـ/1149م) في أواخر الدولة الفاطمية التي كانت تحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة، ونشأ في كنف والده المهذب بن مينا المعروف بالخطير الذي أسلم هو وأسرته في حضور شيركوه.

وكان المهذب يشغل رئاسة ديوان الجيش - وهو من المناصب الرفيعة في الدولة- قبل إسلامه، أما جد الأسعد أبو المليح مينا فقد انتقل من أسيوط والتحق بدواوين الفاطميين ونال حظوة عندهم وترقى في المناصب حتى عين مُستوفياً للدواوين، وقد نشأ الأسعد مُحباً للعلم والأدب حيث تردد على مجالس الأدب التي كانت تُعقد في دار أبيه، وصادف ما يدور فيها هوى في نفسه فمال إلى الأدب ونظم الشعر، وبعد إسلامه أخذ يختلف إلى مجالس الفقهاء والمحدثين ويتزود بثقافة إسلامية رفيعة، وحينما توفي المهذب بن مينا سنة 577هـ/1181م خلفه ابنه الأسعد في منصبه، وتولى ديوان الجيش، ثم أضاف إليه صلاح الدين ديوان المال، الأمر الذي يُشير إلى ثقة صلاح الدين في كفاءة الأسعد واطمئنانه إليه، لأن رئاسة ديوان المال كانت تُعد من أهم الوظائف وأجلها شأناً.

وقد ذكر له ياقوت الحموي أكثر من عشرين مؤلفاً، منها: كتاب "حجة الحق على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم"، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يكثر النظر فيه، كما كان الفاضل معجبا به، ويقول عنه: "إنه والله من أهم ما طالعه الملوك" وكان بين الفاضل والأسعد بن مماتي مودة قريبة وصلة حميمة وتقدير متبادل، ومن مؤلفاته الأخرى "نظم السيرة الصلاحية" الذي أهداه الأسعد للملك الظاهر ابن صلاح الدين، وكتاب "الفاشوش في أحكام قراقوش"، وكتاب "الشيء بالشيء يذكر"، وكتاب "تلقين اليقين في الكلام على حديث بني الإسلام على خمس"، وكتاب "سر الشعر"، وكتاب "علم النثر" وكتاب "باعث الجلد عند حادث الولد.

ويُعد كتابه "قوانين الدواوين" من أهم ما خلفه الأسعد بن مماتي حيث يصف حالة البلاد المصرية خلال القرن السادس الهجري، ويكشف عن سعة إطلاع المؤلف وغزارة علمه، فيما يتصل بالمسائل التاريخية والجغرافية والزراعية؛ فهو يتناول جغرافية مصر ونهرها وطولها وعرضها، وسبب تسميتها مصر وما جاء في ذكر فضائلها، وتفصيل نواحيها وتحقيق أسماء ضياعها وكفورها وجزائرها، ورتب أسماء هذه البلاد والقرى حسب

الترتيب الأبجدي. انظر في ذلك: ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1987م؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1993م؛ المقريزي: كتاب المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1991م. وأيضاً: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

[47]- ابن سناء الملك: هو القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك أبي عبد الله محمد بن هبة الله بن محمد السعدي، شاعر مصري وُلد في القاهرة سنة 550هـ، ودرس العلوم الدينية والأدبية، وظهرت موهبته الأدبية مبكراً، وعمل كاتباً في ديوان الإنشاء مع الفاضل، وسجل معارك صلاح الدين مع الصليبيين، وقد ترك تراثاً علمياً رائعاً يتصدره "ديوانه"، وكتاب "دار الطراز في عمل الموشحات"، وضع فيه ابن سناء الملك أصول نظم الموشحات كما فعل الخليل مع الشعر، كما يتضمن عدداً كبيراً من الموشحات الأندلسية القديمة وموشحات ابن سناء الملك، وكتاب "مختصر الحيوان للجاحظ"، وكتاب "فصوص الفصول وعقود العقول" الذي يتضمن رسائله مع القاضي الفاضل، وللكتاب أهمية كبيرة وبخاصة أنه يشمل بعض ملاحظات الفاضل النقدية عليه، ناهيك عن تعبيره عن الوحدة التي رغب الفاضل في إحداثها بين مصر والشام للتصدي للصليبيين وهم واقفون على أرض ثابتة، فضلاً عن القيمة الأدبية للكتاب نظراً لمكانة الفاضل الذي ضمن الكثير من رسائله في الكتاب ولمكانة ابن سناء الملك الأدبية في عصره. انظر: ابن سناء الملك: فصوص الفصول وعقود العقول، تحقيق: محمد محمد عبد الجواد، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، 2005م؛ الزركلي: الإعلام، جـ3، ص346.

[48]- القاضي الفاضل: مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، ص9.

[49]- القصيدة للأمير أسامة بن منقذ الشاعر والفارس من أسرة بني منقذ التي سكنت شيزر، ويمدح في قصيدته صلاح الدين الذي شبه انتصاراته بانتصارات الإسكندر الأكبر وتعلي من شأن صلاح الدين، وربما لأجل ذلك حرص الفاضل على عرضها على الأصفهاني لنشرها في كتابه "خريدة القصر وجريدة العصر"، كما حرص الفاضل على تقديم الشعراء إلى صلاح الدين أو تقديم أشعارهم التي تُعرض أولاً - على قول ابن خلكان - على الفاضل الذي يقوم بعرضها على صلاح الدين، ومن هؤلاء الشعراء المهذب ابن أسعد الموصلي الذي سبق واتهم الترك بهجر الشعر في أحد قصائده، فحرص صلاح الدين على منحه مكافأة "...لتكذيب قوله وتصديق ظنه فشرفه وجمع له بين الخلعة والضيعة"، كما كان للفاضل أيادي بيضاء على أبي الفتح عثمان بن عيسى بن منصور النحوي، وظافر بن القاسم الجروي الجذامي ومجير بن محمد بن مجير الصقلي وغيرهم. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ7، ص160-162؛ الأصفهاني: خريدة القصر، جـ1، ص497 – 579؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: محمد يوسف، ط2، جـ8، 1982م، ص378-382، جـ15، ص297-298، جـ22، ص223-226؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، جـ2، ص100–128.

[50]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص41.

[51]- القاضي الفاضل: مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، ص6.

[52]- الزركلي: الإعلام، جـ3، ص346.

[53]- البنداري: سنا البرق الشامي، ص140.

[54]- يعد كتاب المنهج المسلوك في سياسة الملوك من نوعية المؤلفات التي كتبت خصيصاً لتهدى إلى الملوك والسلاطين لإيضاح الخطوط العامة في سياستهم وإرشادهم إلى ما فيه الخير، وقد ألفه الشيزري كي يهديه إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي "...جمعت لخزانة علومه (يعنى صلاح الدين) هذا الكتاب وهو يحتوى على ظرائف من الحكمة، وجواهر من الآداب، وأصول في السياسة وتدبير الرعية، ومعرفة أركان المملكة، وقواعد فيه على الشيم الكريمة، والأخلاق الذميمة، وأشرت فيه إلى فضل المشورة والحث عليها وكيفية مصابرة الأعداء وسياسة الجيش، وأودعته من الأمثال ما يسبق إلى الذهن، شواهد صحتها ومعالم أدلتها، مع نوادر من الأخبار وشواهد من الأشعار، وفصلته أبواباً تتضمن حكايات لائقة ومواعظ شافية وحكما بالغة، وسلكت في ذلك كله طريق الاختصار ومذهب الإيجاز لئلا تمجهُ الخواطر وترفضه الأسماع..." الشيزري: المنهج المسلوك في سياسة الملوك، تحقيق: على عبد الله الموسى، ط1، مكتبة المنار، الأردن، 1987م، ص158، 599-600.

[55]- النويري: نهاية الأرب، جـ8، ص8.

[56]- عالج الفاضل في الصورة الأولى أخبار صلاح الدين مبكراً حينما كان يخدم والده وعمه شيركوه الأمير عماد الدين زنكي، ثم تطرق إلى مصر ووصف ضعفها، وأبان عن رأيه بخصوص فساد العقيدة الفاطمية وسوء تدبير ساستها بتعاملهم مع الصليبيين إلى درجة جعلتهم يدفعون أموالاً طائلة لهم للحفاظ على كيانهم، وتطرق إلى ملابسات طلب شاور مساعدة نورالدين الذي بعث بدوره كل من شيركوه وصلاح الدين إلى مصر، وبالرغم من ذهابهما إليها ثلاث مرات فقد عمد الفاضل إلى معالجة متكاملة لم يُشر خلالها سوى للأحداث الكبيرة على غرار انقلاب شاور على شيركوه وصلاح الدين بمساعدة عموري وحصار شيركوه في بلبيس، وفي موضع (من رسائله) آخر قدم وثيقة قيمة للغاية عبارة عن مرسوم تعيين صلاح الدين وزيراً للخليفة العاضد عقب وفاة شيركوه، وأوضح أن الخليفة اختاره لما توسم فيه من مؤهلات فاق بها أقرانه.

وبالعودة إلى الرسالة الأولى فإنه قفز إلى أحداث حصار الحلف الصليبي البيزنطي لدمياط عام 565هـ/1169م وأقر بخطورته الشديدة، وكذا مواجهة صلاح الدين للحملة الصقلية على الإسكندرية عام 569هـ/1174م، ولم يفت الفاضل التنبيه على ما لعبه تجار المدن الإيطالية خلال تلك الفترة المبكرة، بوصفهم يلعبون على كافة الأطراف،

سواء بمساعدة الصليبيين في هجماتهم على بعض المدن والموانئ الإسلامية أو بالتعاقد مع صلاح الدين لجلب بعض الأغراض اللازمة لحروبه "...وما منهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله...ويتقرب إليها بإهداء طرائف أعماله وبلاده، وكلهم قد قررت معه المواصفة وانتظمت معه المسالمة على ما نريد ويكرهون...".

وأشار إلى محاولة الدولة البيزنطية الحصول على إتاوة من مصر "...فأخذنا والله الحمد بكظمه وأقمناه على قدمه، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة في نوبتين بكتابين كل واحد منهما يُظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السلاح والانتقال من معاداة إلى مهاداة ومن مناضحة إلى مناصحة حتى إنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله..."، وبالرغم من أنه لم يحدد وقت حدوث ذلك فإنه لم يتجاوز في الرسالة التي أورد فيها ذلك دخول صلاح الدين إلى دمشق وبداية النزاع مع أمراء حلب للوصاية على الصالح إسماعيل أي ليس بعد عام 571هـ/1176م.

ولم يغفل الفاضل في هذه الحالة الإشارة إلى خطر الصراع بين أمراء نورالدين في الشام على الوحدة التي حققها نورالدين ويسعى صلاح الدين للإفادة منها ضد الصليبيين، وأن الفرقة أكثر فائدة للصليبيين وليس للمسلمين، ولأجل ذلك تحرك صلاح الدين إلى دمشق وامتلكها، وبدأ رحلته لتوحيد بلاد الشام مرة أخرى بعد وفاة نورالدين "...وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة وأمور مختلة وآراء فاسدة وأمراء متحاسدة وأطماع غالبة وعقول غائبة...والمراد الآن هو كل ما يُقوي الدولة ويؤكد الدعوة ويجمع الأمة ويحفظ الألفة...ويتبين أن أمراء الدولة النورية يحتاج إليهم في فتح البلاد القدسية ضرورة لأنها منازل العساكر ومجمع الأنفار والعشائر، فمتى لم يكن عليهم يد حاكمة وفيهم كلمة نافذة منعهم ولاة البلاد وبغاة العناد، وبالجملة فالشام لا ينتظم أمره بمن فيه وفتح بيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه..."، كما تحدث عن فتح صلاح الدين لقلعة أيلة 566هـ/1170م وبعض مدن شمال أفريقيا.

وعلاوة على ذلك فإنه بعث ببشارة في أكثر من رسالة إلى الخليفة العباسي المستضيء بفتح النوبة وإعادة الخطبة العباسية إليها، وأشار إلى الرسالة التي بعثها إلى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن باسم صلاح الدين لحثه على تقديم المساعدة البحرية في عام 585هـ/1189م، وذلك في وقت حرج بالنسبة لصلاح الدين، حينما اجتمعت الجيوش الإنجليزية والفرنسية والألمانية (الحملة الصليبية الثالثة) على حصار عكا وتوابع تلك الأحداث التي أفضت بصلح الرملة عام 588هـ/1192م، وقد رأى الفاضل أن قوة أسطول ابن عبد المؤمن كفيلة بإحداث توازن في الأحداث، سواء بتقديم مساعدة بحرية مباشرة كاملة برجالها وقوادها، أو بمناوئة العدو وعرقلة خطاه في أوربا لشغله وتحويل انتباهه عن الشرق.

كما راسل الفاضل توران شاه على لسان صلاح الدين مبشراً أولاً بفتح السلطان لبعض حصون الصليبيين مثل صفد وكوكب والكرك سنة 584هـ/1188م وسيادة الأمن والأمان في الطرق المؤدية منها وإليها وبالتالي عودة الاستقرار والرخاء إلى المنطقة، ثم عاد الفاضل ليشير إلى استرداد أغلب مدن الساحل عدا صور بسبب اتصالها بالبحر وحصانة أسوارها وكثرة من امتنع بها من الصليبيين الفارين من البلدان الأخرى، وطالب الفاضل توران شاه بضرورة المسارعة في تقديم المساعدة إلى صلاح الدين ضد الصليبيين لأنهم "...لا يسلون عما فتحنا ولا يصبرون على ما جرحنا فإنهم...أمم لا تُحصى وجيوش لا تستقصى، ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصبا ويطمع في كل مدينة كسباً... "، ولأجل ذلك فقد حملت الرسالة خطة صلاح الدين بمهاجمة طرابلس وأنطاكية في وقت واحد، مع مراعاة المحافظة على مصر وبلاد الشام في الفترة ذاتها، وأن طلب المساعدة من توران شاه فبسبب أنه لابد أن يحمل نصيبه من ميراث آل أيوب في ذلك الشرف.

انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ7، ص23-32، جـ13، ص91-95.

[57]- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق: محمد حلمي محمد، جـ1، ق2، القاهرة، 1962م، ص598-602، 587-588، 588، 590.

[58]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص66.

حصل ابن المقدم على بعض القرى والحصون مقابل دمشق منها حصن بعرين وأعماله وكفر طاب وبعض قرى معرة النعمان، وعقب البنداري على ما أخذه بقوله: "...وكان الذي أخذ أكثر وأنفع مما خلاه وما خطر بباله وما حصل له ولا ترجاه ولا تمناه"، وقد أصلح الفاضل بين القاضي الشهرزوري وابن المقدم وغيرهما وبين صلاح الدين، حيث سبق الفاضل صلاح الدين في الدخول إلى دمشق بيوم للحرص على ضمان مساندة الزعامة النورية في دمشق لصلاح الدين. انظر: البنداري: سنا البرق الشامي، ص158، 168؛ السبكي: طبقات الشافية، جـ4، ص76.

[59]- أبو شامة: الروضتين، جـ1، ق، ص612-614.

[60]- القاضي الفاضل: مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، ص28.

[61]- أحمد بدوي: صلاح الدين الأيوبي بين شعراء عصره وكتابه، دار القلم، القاهرة، 1960، ص156.

[62]- البنداري: سنا البرق، ص200-201.

[63]- عن حروب صلاح الدين في تلك الجبهة وتحركاته بها انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص97-122. وأيضاً:ميخائيل السريلني: تاريخ ميخائيل السرياني، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ5، دمشق، 1995م)، ص287-293.

[64]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص121-122.

[65]- ضم صلاح الدين مدينة حلب في صفر سنة 579هـ/1183م، وفتح القدس في رجب سنة 583هـ/1187م، ويعد بيت الشعر من التوقعات الغريبة. انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص122؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص226.

[66]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص122.

[67]- استمرت تلك المحاولات منذ وفاة نورالدين وحتى عام 580هـ/1184م تقريباً بمرض صلاح الدين وعقده الصلح وتركه الحصار، والواقع أن أحداث هذه الفترة متشعبة ومتداخلة، بين جهود السلطان في آمد وميافارقين وتل خالد والموصل وحران وديار بكر وحلب وما إلى ذلك من تلك البلدان، وبالرغم من أن الفاضل كان ينوب عن السلطان في دمشق فقد تفاجأ الأصفهاني برؤيته في حران التي تحرك إليها السلطان بعد تركه حصار الموصل وذلك لزيارة السلطان والاطمئنان عليه. انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص97-122؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص233-269.

[68]- هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص208.

[69]- القاضي الفاضل: الفاضل من كلام القاضي الفاضل، ص20. وأيضاً: هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص208.

[70]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص132.

[71]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص135؛ النويري: نهارية الأرب، جـ8، ص10.

[72]- هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص210. أما عن نص الرسالة التي أشار فيها إلى ذلك فانظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ3، ص99-100. ويُرى من نسج رسائل الفاضل وشعره حرص صلاح الدين على إخلاء منطقة الأردن وإجلاء البدو عنها بحيث لا يصيروا أدلاء للصليبيين على المسلمين، وكان الفاضل غاية في الدقة والذكاء حينما وصف البدو بقوله: "...هم كالحنظل, كلما زيد سقيا بالماء العذب, أفرطت مرارة ثمره وعزت نضارة خضرته". البنداري: سنا البرق الشامي , ص152.

[73]- هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص324.

[74]- انظر: أحمد بدوي: صلاح الدين الأيوبي، ص156-157.

[75] -*Itinerary of Richard I*, pp.4-90, 202-246.

[76]- القلقشندي: صبح الأعشى، جـ6، ص526–530.

[77]- طلب الفاضل في هذه الفترة تحديداً التي صاحبت محاصرة الفرنج لمدينة عكا المساعدة بكل وسيلة ومن كافة أمراء المسلمين في كل البلدان بما في ذلك الأندلس. عن يوسف ابن عبد المؤمن انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ7، ص130-138؛ الأصفهاني: الفتح القسي، ص263؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، جـ3، مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، وزارة المعارف، مطبعة فؤاد الأول ، ص512-515، 506.

[78]- القلقشندي: صبح الأعشى، جـ6، ص526–530.

[79]- بعث الفاضل في أثناء حصار الحملة الصليبية الثالثة لعكا برسالة طويلة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يستنجده على الفرنج الذين لا يبخلون بالمال ولا بالنفس وعددهم في تزايد مستمر، وهؤلاء لا ينقصهم أي مدد أو مؤن، ولأجل ذلك طلب الهمة في الإمداد والرغبة في الدعاء لصلاح الدين وحث الناس والأمراء ومكاتباتهم لأجل تقديم المساعدة المرجوة. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ7، ص127-130. وعن الدعاية المضادة التي شنها بعض مؤرخي أوربا ضد صلاح الدين انظر:

Letter from the East to Master of the Hospitalers, 1187, in http://www.shsu.edu/~his_ncp/Cruslet.html; *Letter of Frederic I to Leopold of Austria, 1189*, http://www.shsu.edu/~his_ncp/Cruslet.html; *Letter of Sibylla, Ex-Queen of Jerusalem*, to Frederic I, 1189, http://www.shsu.edu/~his_ncp/Cruslet.html; Roger of Wendover, *Flowers of History*, vol. II, London, pp.71-72; Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge,* (Berlin, 1883), p.72; See also: Keder, (B.Z), *European Approaches towards the Muslims*, (Princeton, 1984), pp.56-7; Munro, (D. C), "The Western Attitude toward Islam during the Period of the Crusaders", *Speculum,* Vol. 6, No. 3 (Jul., 1931), pp.329-330, 337-338; Schwinges, (R.C.), "William of Tyre, the Muslim Enemy, and the Problem of Tolerance", in *Tolerance and Intolerance, Social Conflict in the Age of the Crusades*, Michael Gervers and others (eds.), (New York, 2001), pp.126-128.

[80]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص183،173.

نوه العماد الأصفهاني إلى تلك الخطورة خلال توجه الملك جاي لوزينان لمحاصرة عكا انتظاراً لقدوم الحملة الصليبية الثالثة.

[81]- النويري: نهاية الأرب، جـ5، ص148.

[82]- النويري: نهاية الأرب، جـ8، ص5.

[83]- ابن واصل: مفرج الكروب، جـ3، ص512-515، 506. وأيضاً: الأصفهاني: الفتح القسي، ص263.

[84]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص190.

[85]- القلقشندي: صبح الأعشى، جـ7، ص23-27.
[86]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص179-181. مات الخليفة المستضيء بالله العباسي عام 575هـ وخلفه ولده الناصر لدين الله. انظر: البنداري: سنا البرق، ص173.
[87]- القاضي الفاضل: مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، ص68.
ثمة كثير من الرسائل الأخرى التي تُفيد هذا الغرض، والتي يربط فيها الفاضل بين إعلام دار الخلافة بفتوحات صلاح الدين وانتصاراته على الفرنجة في البحر وفي الداروم في شوال من عام 579هـ/1183م وبين الحصول على تقليد بحكمها وذلك كي يمثل له الرعية. انظر: البنداري: سنا البرق، ص229-230.
[88]- القاضي الفاضل: مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، ص75-80.
أشار الفاضل في بعض كتبه إلى أن طريق صلاح الدين لم يكن ممهداً، لأنه كان يُلاقي من الأدعياء الذين اضطر إلى محاربتهم أحياناً ومسالمتهم حيناً آخر، وكان يود لو صرف كل جهده في محاربة العدو الصليبي "وقد علم الله أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكننا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولاً، وكالأنعام أو أضل سبيلاً، إن بنى معهم فعلى غير أساس، وإن عدد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس". وأيضاً: أحمد بدوي: صلاح الدين، ص148.
[89]- في رسالة إلى أحد الأمراء - لم يحدد الفاضل شخصيته – يطلب منه المعاجلة بمد صلاح الدين بالمساعدة الحربية اللازمة فإنه يتضح عدد من الأمور منها أن الفاضل كان يعمل على جمع المساعدة الحربية من الأماكن التي عليها دور تقديم تلك المساعدة وقت راحة جند بلد آخر، وأن استقدام تلك العساكر وطلبها لم يكن مرهوناً في كافة الأحوال بوضع عسكري معقد وإنما قد يكون تحسباً نتيجة لاقتراب انقضاء أجل هدنة ما بين المسلمين والصليبيين، وأن الفاضل كان يلمس الأوتار الحساسة لدى هؤلاء الأمراء ويغالبهم بكثرة الرسائل إليهم كي يكون في ذلك إقناع. انظر: القاضي الفاضل: مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، ص75-80.
[90]- البنداري: سنا البرق الشامي، ص274. وعن رسائل الفاضل الأخرى التي حاول بها رفع معنويات صلاح الدين بعد معركة الرملة انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ3، ص66-68؛ أبو شامة: الروضتين، ص489-491.
[91]- القاضي الفاضل: المختار من كلام القاضي الفاضل، ص101.
[92]- النويري: نهاية الأرب، جـ28، ص246-247.
[93]- القاضي الفاضل: المختار من رسائله، ص29.
[94]- أشار الفاضل إلى ما أسقطه صلاح الدين من المكوس على حجاج مكة، وعوض أميرها بغلة تحمل إليه كل عام، وتعيين ضياع موقوفة عليه بالديار المصرية، وكان الرسم بمكة أن يُؤخذ من الحجاج القادمين من المغرب ضرائب على كل فرد، فإذا دخل حاج حُبس حتى يُؤدى ما عليه، وإذا كان فقيراً لا يملك شيئاً حُبس ولا يُترك، ويفوته الوقوف بعرفه، كما قرر صلاح الدين حمل القمح إلى المجاورين بمكة، ويشير أحمد بدوي إلى أن هذه المكرمة كان لها أثرها في قصيدة لابن جبير الأندلسي يشكر فيها صلاح الدين ويمدحه على ذاك الفضل، ويؤكد بدوي أن العالم الإسلامي قد قابل هذه المكرمة الصلاحية بالتقدير والإعجاب ومكنت حب صلاح الدين من نفوس رعاياه. انظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1998م، ص40-41. وأيضاً: أحمد بدوي: صلاح الدين، ص147-148.
[95]- سعي الفاضل في رسالة أخرى لدى السلطان لإسقاط بعض المكوس والمظالم عن بعض نواحي مصر وخصوصاً الإسكندرية "فينعم بكتاب إلى والي الإسكندرية من ذلك، فإنها مظلمة...وقد سومح بالكثير، ونوظر في هذا القليل الحقير، وجرت على القلم العمادي راحات ومسامحات، فيجعل هذه من عرضها...". القاضي الفاضل: مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، ص49.
[96]- القاضي الفاضل: مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، ص49.
[97]- القاضي الفاضل: عيون الرسائل الفاضلية، ص21. وتشير هادية الدجاني إلى أن الأصفهاني الذي كتب تلك اللفظة قد اعتذر عنها للفاضل وأنه لم يقصد المفاضلة بين مصر والشام وإنما توضيح وضع دمشق بوصفها وسط الأعداء. انظر: الأصفهاني: البرق الشامي، جـ3، ص142-143. وأيضاً: هادية الدجاني: القاضي الفاضل، ص332.
[98]- القاضي الفاضل: عيون الرسائل الفاضلية، ص62-63.
[99]- القاضي الفاضل: كتاب المختار، ص71.
[100]- القاضي الفاضل: الديوان، جـ2، ص420.
[101]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص195.
[102]- القاضي الفاضل: مجموعة من رسائل القاضي الفاضل، ص226-227.
[103]- للفاضل رؤية في هذه الأماكن الثلاثة أكد خلالها الخطورة المنبعثة من الثلاثة حصون، فصفد وكوكب من حصون الداوية، وهؤلاء لديه أخطر عناصر القوى الصليبية على المسلمين في أحوال السلم والحرب، وكان بقاؤهما في أيدي الداوية خطراً على أمن المنطقة المحيطة بالحصنين، بينما جاءت خطورة الكرك من وجوده في يد أرناط الذي حاول الوصول من خلاله إلى الحرمين الشريفين، وهنا فإن الفاضل يسمو فوق الكلمات بقوله أن أمن الحرمين لا يقل أهمية أو خطورة عن أمن مصر، وأن استرداد الكرك أراح كاهل المسلمين من ذلك الهم الذي

عانوا منه كثيراً، وقد ورد جميع ذلك في رسالة الفاضل إلى توران شاه. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، جـ7، ص23-27.

[104]- القلقشندي: صبح الأعشى، جـ7، ص22.

[105]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص144.

[106]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص149.

[107]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص162.

[108]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص177.

[109]- القلقشندي: صبح الأعشى، جـ8، ص285.

[110]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص106.

[111]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص207.

[112]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص96-97؛ البنداري: سنا البرق الشامي، ص171.

[113]- وصف العماد الأصفهاني قوة الإمبراطور فردريك بربا روسا بشكل جعل الجميع يرهبه، وبخاصة أن المبالغات التي ضخمت أعداد جنوده وقادته قد كثرت، ولشدة هذا الموقف وهوله فقد قرر بعض الأمراء المسارعة إلى لقاء بربا روسا قبيل قدومه إلى بلاد الشام وإلا كان في ذلك هلاك للإسلام والمسلمين، وربما لأجل ذلك حمد المسلمون ربهم حينما وصلهم خبر موته، لأنهم رأوا أنه على الصورة المرسومة له في المصادر المعاصرة كان من أكثر الأخطار التي تعين على المسلمين مواجهتها في تلك الحقبة. انظر: الأصفهاني: الفتح القسي، ص206-212. وأيضاً: تاريخ ميخائيل السرياني، ترجمة: سهيل زكار (الموسوعة الشامية، جـ5، دمشق، 1995م)، ص304-305.

[114]- الأصفهاني: الفتح القسي، ص220.

[115]- النويري: نهاية الأرب، جـ8، ص9.

[116]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص184.

[117]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص195.

[118]- *Itinerary of Richard I*, pp.4-90,91-140.

[119]- *Itinerary of Richard I*, pp.202-246.

[120]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص184.

[121]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص197.

[122]- ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص177.

[123]- أبان ابن الأثير في هذه النقطة عن مصادره لهذه المعلومات الممثلة في أسرى الحروب التي دارت لاحقاً بين صلاح الدين وقادة الحملة الثالثة حيث التقى بهم وعلم منهم الكثير الذي يُشير ضمناً انه علم منهم ما ذكرناه عاليه. انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ10، ص183-184.

[124]- الفاضل: مراسلات فاضلية، ص1.7-112

[125]- الفاضل: مراسلات فاضلية، ص107-112. وعن المنجنيق انظر: العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة، 1312هـ، ص207. وأيضاً: أرنبنا الزردكاش: الأنيق في المناجيق، ترجمة: نبيل محمد عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1981م، 100-145. وللكتاب طبعة أخرى أحدث ولكن لم نعتمد عليها هي: أرنبنا الزردكاش: الأنيق في المناجيق، تحقيق: شرح وتعليق: إحسان هندي، معهد التراث بحلب، ومعهد المخطوطات العربية بالكويت، 1985.